رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

ملحق اسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

العدد (2463) السنة التاسعة
الاثنين (24) نيسان 2012

2

اسرار التشكيل السري في جيش العراق

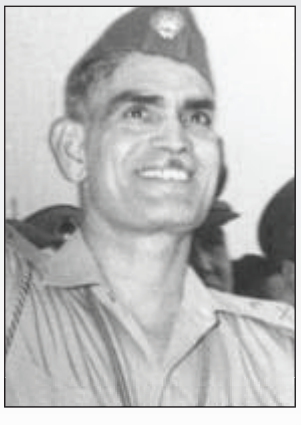

الصورة بعدسة
الفنان الكبير ناظم رمزي

مقاهي البصرة القديمة

الحنفي: هكذا كنت ارى باب المعظم

اسرار التشكيل السري في جيش العراق

تحقيق كتبه
محمد وجدي قنديل

هذه قصة جيش العراق.. قصة الثورة التي سرت في قلوب الضباط والجنود خلال ١٧ سنة. والتشكيلات السرية لخلايا الضباط الاحرار. واليمين التي اقسمها الضباط على المصحف امام «كريم» على الكتمان والفداء.. والخطة التي وضعت لمواجهة احتمالات العدوان المسلح من اي اتجاه.. القصة بكاملها كما كتبها من بغداد:

وفي ومضة خاطفة اذهلت الدنيا..

كان كل ضابط وكل جندي في جيش العراق ينتفض في ثورة الحرية ويساند الطليعة المتقدمة التي احتلت بغداد.. وبنفس السرعة اتجهت قوات الموصل الى عين زالة واحتلت منشآت البترول هناك وبقيت تحرسها من تخريب الايدي الخفية..

وفي ذات الساعة كانت قوات البصرة تتجه الى الزبير وتسيطر على حقول البترول هناك وتقف في ميناء الفاو على اهبة الاستعداد، ومع هذا التوقيت كانت هناك قوات اخرى تتجه الى الحبانية وتأخذ مكانها بجوار القاعدة الكبيرة لكي ترقب مجرى الاحداث..!

خلال ساعة واحدة

حدث كل هذا في ساعة واحدة من الثامنة الى التاسعة صباحا وفي تنظيم مذهل..

كانما كانوا على ميعاد مع اللواء التاسع عشر الذي دخل بغداد..

كأنما كانت كل وحدات الجيش تعرف خطة الضباط الاحرار للثورة في ١٤ يوليو..

كأنما جلسوا ووضعوا خطة كاملة في هدوء تام في رئاسة العمليات تحت سمع الحكومة وبصرها وانطلقوا ينفذونها بدقة واحكام..

كأنما لم يكن هناك نوري السعيد وعبد الاله وجواسيس نوري السعيد وعبد الاله وعيونهم التي لا تغفل ولا تنام وتراقب كل حركة وكل همسة!

بداية التشكيل

ماهو السر اذن؟ ماهي حقيقة تشكيلات الضباط الاحرار؟

كيف ابلغت التعليمات الى الوحدات؟

كيف خدع ضباط العمليات اعوان نوري السعيد؟

كيف تمت تعبئة القوى في الجيش من اوله لآخره وشحنها للثورة؟ كيف كانوا يقسمون اليمين مع «كريم»؟

ان القصة طويلة في تاريخها.. عجيبة في ظروفها.. مثيرة في تفاصيلها..

ان قصة الثورة في جيش العراق لم تبدأ منذ عامين او ثلاثة وتشكيلات الضباط الاحرار وخلاياهم لم تنظم خلال شهر او شهرين. ولكن الحقيقة الكبيرة هي:

ان خلايا الضباط الاحرار بدأت تتشكل في الجيش العراقي بعد فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني بعام واحد!

كانت الدماء الوطنية مازالت تلتهب في العروق..

وكانت صور الشهداء وهم معلقون في المشانق مازالت تتأرجح امام العيون. وكانت الآمال العظيمة التي عقدت على ثورة ١٩٤١ للتخلص من الاسرة الهاشمية والانجليز ونوري السعيد مازالت تشع في الصدور..!

وبدأ ضباط الجيش العراقي ينظرون الى بعضهم في البداية.. كل واحد يريد ان يقول شيئا في صدره لصديقه او لزميله او لرئيسه ولكنه لا يريد ان يكشف عن الخطة..

كل واحد ينتظر اشارة من القائد لكي ينطلق على الفور في ثورة جديدة وتشجع بعضهم واخذوا يتهامسون وتحولت النظرات الى همس خافت واحس كل واحد منهم انه ليس وحده الذي يريد ان يتكلم ويقول شيئا ولكن هناك عشرات غيره عندهم اشياء!

وبدأ الجيش يغلي من جديد في سنة ١٩٤٦.

وشعر عبد الاله ان البركان بدأ يتحرك ولم ينتظر وانما رسم حركة تنقلات واسعة النطاق في كل الوحدات وبعثر الضباط في ارجاء العراق واحال جزءا منهم الى الاستيداع وكانت اول حركة تطهير يقوم بها عبد الاله بعد حركة التطهير من ثورة الكيلاني..!

لقاء في فلسطين

وجاءت حرب فلسطين في سنة ١٩٤٨. وكانت نقطة البدء للعمل الكبير. فقد سافرت الوحدات الاساسية من جيش العراق الى هناك. وكان بينهم وحدة يقودها عبد الكريم قاسم. ووجد الضباط انفسهم لاول مرة خارج النطاق الحديدي الذي كان مضروبا حولهم في العراق..

وكان اول واحد هو عبد الكريم قاسم نفسه.. فقد جمع ضباطه الشبان واخذ يحدثهم عن الوطنية والاستشهاد في سبيل الرسالة المقدسة التي يحملها الجيش على كتفيه باستمرار.. وقال لهم: اننا في الميدان الان نقاتل من اجل الوطن العربي الكبير..

ووصل هذا الكلام الى مخابرات عبد الاله..!

وغضب الوصي. وقتها. وقال:

.كيف يتكلمون عن الوطن، ولا يتكلمون عن الاسرة الهاشمية ومآثرها؟

واصدر عبد الاله. بصفته القائد الاعلى للجيش. امرا عسكريا بأن يكون موضوع الحديث الى الجنود والضباط باستمرار عن الاسرة الهاشمية ودورها الوطني من اجل العرب..!

وانتهز الضباط الفرصة واخذوا يهاجمون الاسرة الهاشمية بطريق غير مباشر..

وقال لي احد الضباط الاحرار:

.لقد كانت حرب فلسطين هي الشرارة المباشرة التي اشعلت الثورة في نفوسنا.. كنا نرى الجيوش العربية الاخرى تقاتل من حولنا، ونحن واقفون نتفرج.. وبدأنا نتساءل عن السر وتكشفت لنا صورة الخيانة كاملة بعد ذلك، حينما انسحب الجيش الاردني من اللد و الرملة.. وكشف جناح الجيش المصري للاسرائيليين. وشعرنا انها خطة مرسومة... وعدنا من حرب فلسطين وفي نفوسنا مرارة ودوافع للانتقام.

خطة التشكيل

وقال لي ضابط اخر:

لقد كانت حرب فلسطين فرصة كبيرة لنا لكي نعيد تنظيم صفوفنا من جديد وبالفعل شهدت رمال فلسطين اجتماعات خاطفة بين الضباط الذين اتفقوا على هدف واحد. وفي بعض الاحيان كانت تتم لقاءات عابرة بينهم في سيارات الجيب او اثناء التفتيش على المواقع.

وحينما عاد الجيش من الحرب كانت الخطة موضوعة على اساسين:

×الاتصال بالضباط الكبار في الجيش. اصحاب الرتب الكبيرة. وجس نبضهم ومحاولة ضمهم الى التشكيلات.

×خلق الوعي الثوري بين الضباط الصغار. الذين تخرجوا حديثا. واعدادهم للثورة بحيث يكونون على استعداد في اي لحظة عند العمل الحاسم وهكذا وضعت الخطة الاولية، وهكذا مضى تنفيذها..!

ومضت السنوات تتلاحق بعد ذلك والتشكيل يكبر ويكبر..

اليمين امام كريم

وكان «كريم». عبد الكريم قاسم كما يسميه الضباط الاحرار. يقابل الضابط الكبير الذي ينضم الى التشكيل ويقسم معه اليمين.

وقد روى لي احد الضباط الاحرار، قصة انضمام واحد من هؤلاء الضباط الى التشكيل. وقال:

.كنت اعرفه من ايام الكلية الحربية وكان استاذي فيها سنة ١٩٣٦، وكان دائما ابدا يكلمنا عن الوطنية في كل درس وتذكرته بعد ان نظمنا انفسنا. وذهبت اليه في البيت، وأخذت اتكلم معه كلاما عاديا، ولكن عيوني كانت تنطق بحقيقة ما ينفعل في نفسي.. وفجأة وجدته يقول لي:

.أسمع.. انا اعرف ما يجول بخاطرك.. انا ايضا اريد ان اقول لك ان عندي نفس الشعور..!

وبدأنا نتكلم بصراحة..

ولا تتصور فرحتي ساعتها، فقد كان في منصب كبير يساعدنا على تغطية الحركة.

وقمت على الفور الى التليفون وطلبت «كريم» في البيت، وقلت له الخبر. بالشفرة. لان تليفونات كبار الضباط كانت مراقبة..

واخبرته اننا سنجيء لنشرب الشاي عنده..

واخذت معي الضابط الكبير وذهبنا الى «كريم» في البيت وشربنا الشاي وقام كريم واحضر المصحف..

وقام الضابط الكبير. بعدها. واقسم اليمين على الكتمان والاستشهاد من اجل الحركة وكسبنا ضابطا جديدا في صفوفنا..!

نقطة تحول

كانت سنة ١٩٥٢ نقطة تحول حاسمة في تنظيمات الثورة داخل الجيش العراقي وتأكد الضباط الاحرار من نجاح خطتهم بعد ان نجحت ثورة الجيش في مصر، واشتدت عزيمتهم، وصمموا على المضي في طريقهم حتى النهاية، وكانت ثورة ٢٣ يوليو في ذات الوقت جرس الخطر الذي دق بعنف في قصر الرحال ونبه عبد الاله الى طورة الموقف..

وجمع نوري السعيد كل الجواسيس والاعوان وقرروا مواجهة الحالة..!

ازدادت العيون المبثوثة في كل مكان حول ضباط الجيش الذين عاشوا ثورة سنة ١٩٤١!

اعيد توزيع وحدات الجيش في الموصل والبصرة وبغداد، بحيث لا تبقى أي قوات للمشاة في بغداد او قربها..!

رفع عدد لواء الحرس الملكي. اللواء الخامس والعشرين. وتم تسليحه باحدث الاسلحة، وسحبت الذخيرة من مخازن الجيش ووضعت تحت الحراسة الشديدة، ونقل جميع الضباط الخطرين والمشتبه في امرهم الى مراكز بعيدة في اقصى الجنوب او في ادنى الشمال..!

مناورات بلا هدف

ولم يكتف عبد الاله ونوري السعيد بذلك، وانما قرروا شغل كل الالوية في مناورات دائمة خارج المدن..

وقد قال لي احد الضباط الاحرار:

.ان المناورات كانت بلا هدف وبلا خطة، كل ما في الامر هو انهم كانوا يريدون ابعادنا في الصحراء اطول مدة ممكنة، وتحويل تفكيرنا عن الاهداف الجارية في المنطقة العربية..

ولكن الذي حدث هو العكس.. كنا ننتهز الفرصة ونستمع الى «صوت العرب» في الصحراء بعيدا عن محطات التشويش الموضوعة داخل المدن وعن عيون الرقباء.

وكنا ننظم انفسنا ونلتقي في الخنادق وفي المواقع، ونعقد اجتماعاتنا ونبلغ اوامرنا السرية على هذه الصورة..!

اسرار الاجتماعات

ولم تكن الاجتماعات السرية للضباط الاحرار تتم على شكل واحد، ولم يكن يحضرها نفس الضباط في كل مرة.. ولكن الاعضاء كانوا يتغيرون في كل اجتماع، ويحضره ضابط

واحد عنده فكرة عما تم في الاجتماع الذي سبقه.. وهكذا..
وكان الهدف من ذلك هو الا نترك اية فرصة لجواسيس عبد الاله حتى نقع بين ايديهم، حتى ولو كانوا بيننا في الاجتماع، وكان الهدف ايضا هو الا نثير شكوك المخابرات التي تراقبنا..
اما مكان الاجتماعات فقد كان يتغير باستمرار.. مرة يتم الاجتماع .مثلا .في مقهى على الطرف البعيد لنهر دجلة خارج بغداد..
ومرة ثانية يعقد الاجتماع في حفلة شاي عادية في بيت احد الضباط..
ومرة ثالثة .وهذا هو الاهم .يعقد الاجتماع في لقاء عابر على الطريق الى كركوك او البصرة في سيارات الضباط الاحرار الخاصة!
وكانت نتائج الاجتماعات تبلغ اولا بأول الى رأس التشكيل عن طريق الخلايا الهرمية..

امام وزارة الدفاع

وبالمناسبة هناك نقطة هامة في تشكيل الضباط الاحرار، وهو ان كل خلية تعتبر مستقلة بذاتها، ولا يعرف اعضاؤها سوى رئيسهم في الخلية، ولا يعرفون باقي الخلايا في الوحدات الاخرى لدرجة ان احد الضباط الشبان شاهد عبد الكريم قاسم قبل الثورة بعشرة ايام امام مبنى وزارة الدفاع، يصافح اللواء عمر علي قائد الفرقة الاولى .المعتقل الآن .باحترام زائد وتصور الضابط ساعتها ان عبد الكريم قاسم من اتباع عبد الاله في الجيش، ولم يكن يدري سر الكاموفلاج المقصود. وذهب غاضبا الى رئيس الخلية وقال له: كيف يفعل ضابط كبير مثل ذلك؟
وفرح رئيس الخلية حين سمع الحكاية و لكنه ابدى غضبه وقال: انه يريد ان يعيش، ولا تطلب من كل الناس ان يكونوا مثلك..!
وكانت اروع مفاجأة بعد ذلك بأيام حينما عرف الضابط الشاب ان عبد الكريم قاسم الذي انحنى بأدب امام عمر علي هو نفسه قائد الثورة والرئيس الكبير للخلية التي كان فيها..

كاموفلاج للتغطية

وليس هذا فقط هو ما فعله الضباط الاحرار لتغطية تحركاتهم وبث الطمأنينة في نفوس الجواسيس.. كانوا لايتكلمون ابدا.. ولا يتناقشون ابدا.. ولا يثورون ابدا..
وكان اعوان عبد الاله يعرفون ذلك فكانوا يتعمدون اثارة أي واحد منهم بكافة الطرق..
وفي احدى المرات فقد احد الضباط الكبار أعصابه في احدى الحفلات الخاصة واخذ يلعن الاسرة الهاشمية، وكانت النتيجة ان نقل من رئاسة اللواء وبعثر اللواء نفسه في كل مكان، وابعد الضابط الذي كان يرافقه الى البصرة..
وفي مرة اخرى حضر احد الضباط الاحرار حفلة عشاء لوداع احد اقاربه المدرسين الوطنيين المنقولين الى الموصل وقبل نهاية الحفلة مال المدرس على اذن الضابط وهمس:
لقد سمعت ان هناك حركة في الجيش..!
وسقط قلب الضابط وخاف ان ينكشف امر التشكيل الثوري فقال له:
ابدا.. نحن مخلصون لذات الملك.. ولا اعتقد ان هناك احدا يجرؤ على عمل شيء..!
وتبرم الرجل ومط شفتيه وقال:
. ماكو رجل في الجيش..!(يقصد ما في رجل)..!

مؤتمر عمليات

وقد روى احد الضباط ايضا سر احد الاجتماعات الهامة التي كانت في وزارة الدفاع بين الضباط الاحرار بدون ان يلتفت احد اليها وقال:
.لقد ذهبت في يوم لمقابلة العقيد عبد الوهاب الامين، ومعرفة اخر الاخبار وكان وقتها مديرا للعمليات الحربية في الجيش. ولم اجده في مكتبه. وقالوا لي انه مع الزعيم ناجي طالب. وكان وقتها قائدا للواء الخامس عشر .ووجدت النور الاحمر على باب غرفة العمليات، واستمر المؤتمر ثلاث ساعات واطمأن خاطري ولم أنتظر، وانما عدت بسرعة الى اخواني في الوحدة، وطمأنتهم وقلت لهم:

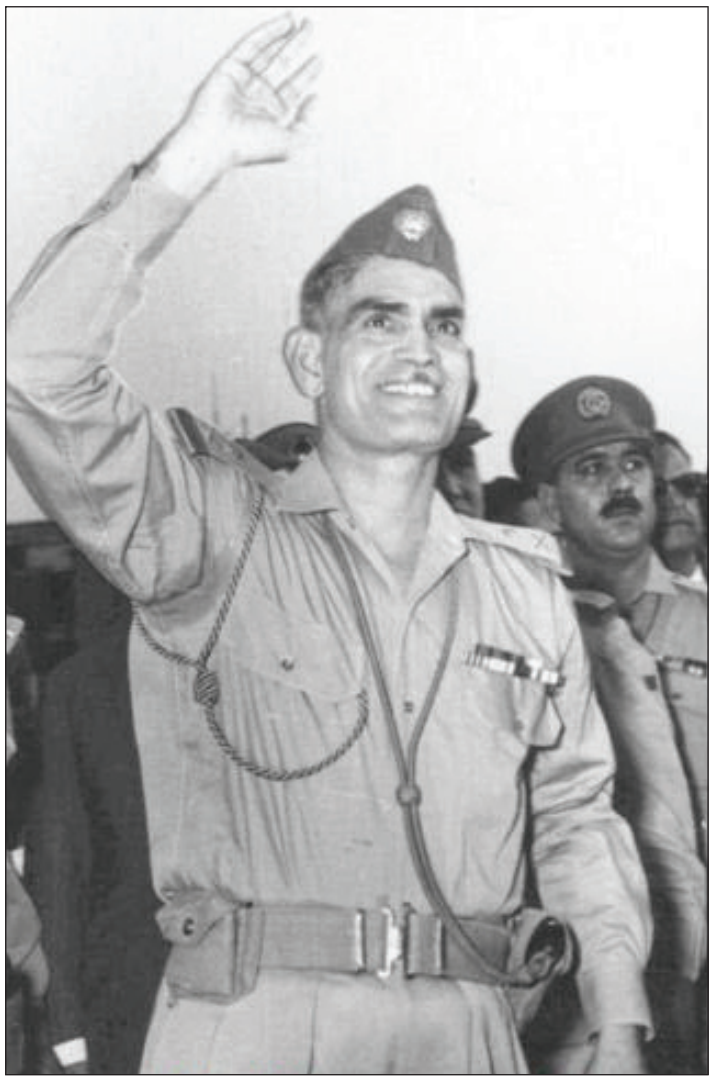

ان الطبخة استوت..!

وكان هذا الاجتماع في ظاهره يعني اوامر التحركات للواء الخامس عشر، وطريقة تنفيذها كما صدرت من رئيس الاركان.. وفي باطنه يخفي اجتماعا سريا لتبادل وجهات النظر على الخرائط في طريقة تنفيذ الثورة..

قصة اللواء 15

وعلى هذا الحال مضت الشبكة السرية تعمل في صمت وهدوء..
كان هناك ضباط في المخابرات يحجزون التقارير المقدمة التي تكشف سر الضباط الاحرار قبل ان تصل الى الرئاسة ويبلغون الخطط المضادة اولا باول الى التشكيلات الاخرى حتى تأخذ حذوها..
وكان هناك ضباط في رئاسة العمليات ومهمتهم ان يوفقوا بين خطة الثورة وبين تحركات الالوية المختلفة ومرورها عبر بغداد. . والاهم من ذلك تمكن هذا الضابط الحر من تنسيق كافة اعمال وخطط مجلس قيادة الثورة بالشكل الملائم لخطة الثورة مع اعمال وخطط حكومة نوري السعيد دون ان تكشف حكومة السعيد حقائق الامور.
وكان هناك شرطيان اساسيان يجب توافرهما لتنفيذ الخطة على الفور:
×وجود الملك وعبد الاله ونوري السعيد وغازي الداغستاني ورفيق عارف وآخرين غيرهم في بغداد في وقت واحد.
×مرور اي لواء من الوية الجيش في العاصمة او تحركه قربها في نفس الوقت.
وكادت الخطة تنفذ يوم ٩ ابريل الماضي..
فقد صدرت الاوامر الى اللواء الخامس عشر الذي يقوده الزعيم ناجي طالب .وزير الشؤون الاجتماعية الآن .بالتحرك في الحال الى منطقة جلولاء على بعد ٨٠ كيلومترا شمال بغداد وفرك الضباط الاحرار ايديهم فقد جاءت الفرصة ورسمت الخطة على اساس ان يطبق اللواء مرة واحدة على بغداد. ولكن في آخر دقيقة الغي تنفيذ الخطة وتأخرت الثورة حيث ظهر ان عبد الاله سافر بطائرة خاصة الى تركيا..!
وكان معنى قيام الثورة وعبد الاله خارج العراق هو ان تصاب بنكسة مضادة مثل النكسة التي حدثت في سنة ١٩٤١.
وكان معنى افلات اي واحد من هؤلاء الخمسة خارج العراق هو التدخل الاجنبي المسلح ضد الثورة او احداث فتنة في صفوف الجيش!

اوامر بالاذاعة

وبدأ الضباط الاحرار بعد ذلك يبحثون طريقة ابلاغ الاوامر الى الوحدات المنتشرة في طول البلاد وعرضها عند تنفيذ خطة الثورة..
ووجدوا من الصعب ابلاغها باللاسلكي او بواسطة الرسائل الشفرية لانها سوف تضبط في الحال وتنكشف قبل تنفيذها.. واتفقوا في النهاية على ان تبلغ الاومر الى كافة الوحدات عن طريق الاذاعة.. وصدرت التعليمات الى رؤساء الخلايا عند اقتراب التنفيذ في شهر يوليو ان يرهفوا آذانهم الى الراديو باستمرار وينتظروا الاوامر في اي لحظة بالليل او بالنهار..!
وكان هذا هو ما حدث بالضبط في قاعدة الشعيبة الجوية جنوب البصرة. ونفس الخطة التي نفذت في هذه القاعدة الجوية، نفذت في باقي الوحدات والاسلحة..
وحكى لي المقدم الطيار محمد ناصر الكسار قصة الخطة وقال:
عرفت من قيادة التشكيل ان الموضوع يقترب وان اول شيء سوف ينفذ في الخطة العامة هو الاستيلاء على الاذاعة لاصدار التعليمات منها وجاءني امر سري من القيادة بعد ذلك يقول (استعدوا وانتظروا التعليمات)!

قصة من الثورة

وبالفعل بقيت في القاعدة لا اغادرها بالليل او بالنهار..
ولكي ابرر موقفي امام الرؤساء ولا اثير الشكوك حولي اذعت اننا نواصل التدريب استعدادا لاستقبال الطائرات النفاثة الجديدة القادمة الينا ومرت الايام بطيئة متثاقلة ومضى يوم ٥ يوليو بلا شيء.. ثم جاء يوم ١١ يوليو ثم..
فجأة فتحت الراديو صباح ١٤ يوليو وسمعت صوتا اعرفه جيدا .صوت عبد السلام عارف .
وقفزت من مكاني وقلت:

الحمد لله.. نجحنا!

واخذت المدفع الرشاش في يدي ولم انتظر حتى اسمع باقي الاذاعة ولكنني جمعت الطيارين والجنود ووزعت عليهم الاسلحة واخبرتهم بقصة الثورة..
واسرعنا الى بيوت الضباط الخمسة الكبار في القاعدة وتحفظنا عليهم وفي لحظات سيطرنا على القاعدة وانزلنا علم الاتحاد الهاشمي..
وارتفع العلم العراقي وتم كل شيء في لحظات..
ولكن كانت هناك خطوة اخرى هامة. كان علينا ان نراقب الاتصالات اللاسلكية بين المطارات الاخرى ونطمئن الى سيطرة الثورة على قواعد الحبانية والرشيد والموصل..
وبدأت غرفة اللاسلكي عندنا تراقب الرسائل المتبادلة بين المطارين وبعد لحظات جاءني الضابط المختص واعطاني امرا من قاعدة الحبانية بان تنطلق دوريات مستمرة من الطائرات العراقية فوق الخليج العربي لمراقبة الطائرات الانكليزية والمدمرات المرابطة في مواجهة الكويت.
وكان الامر موقعا من القائد الجديد عارف عبد الرازق وعرفت ساعتها اننا نسيطر على سماء العراق!

جرح في كل قلب

وحينما ذهبت اجول بين قوات اللواء الخامس عشر الذي تقع على عاتقه اخطر مهمة في جنوب البصرة وقف العقيد عبد المجيد على الامر الجديد لقواته يقول لي وأصبعه تشير الى الحدود الجنوبية للعراق:

لقد استفدنا من اخطاء سنة ١٩٤١ ووضعنا في حسابنا ايضا احتمالات العدوان الغادر ووزعت قوات الجيش العراقي بحيث يمكنها مواجهة هذه الاحتمالات.

وسكت الرجل قليلا ثم عاد يقول:

ان الجيش العراقي مجهز بأحدث الاسلحة وقد اصبحت لدينا فرقة مدرعة كاملة من الدبابات الثقيلة طراز السنتوريان وهي ذاتها المستخدمة في الجيش الانكليزي الآن ولدينا ايضا مدافع ثقيلة وكان نوري السعيد قد اذاع ان الجيش العراقي اصبح مسلحا بالمدافع الذرية التي تطلق (رؤوس قنابل ذرية) ولكن الحقيقة انها كانت شحنة من المدافع الثقيلة وانطلقت ابواق نوري السعيد تستغلها للدعاية لحلف بغداد!
وقد سمعت نفس المعاني ونفس الكلمات الجريئة من كل ضابط في الجيش العراقي..
كلهم كانوا يقولون لي:
اننا لن نؤخذ على غرة في هذه المرة ولكننا سوف نقاتلهم حتى آخر قطرة من دمائنا.
وكلهم كانوا يقولون:
ان في كل بيت ضحية لارهاب نوري السعيد ولكل ضابط قريبا او اخا عذبه الاستعمار واعوانه ولهذا لم يكن غريبا ان تجد دعوة الثورة هذا الالتفاف بين صفوف الضباط.. وتلتقي حولها القلوب والآمال مرة واحدة!
وهناك مثلا ضابط اسمه (العقيد حسن صبري بعقوبة) ابوه الزعيم محمد علي بعقوبة اخرجه الانكليز من الجيش سنة ١٩٢٦ لانه رفض ان يتعاون معهم واخوه الاكبر اشترك في ثورة سنة ١٩٤١ ونفاه عبد الاله الى جنوب افريقيا واخوه الاصغر طيار استشهد في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨.
ويمضي الضابط يقول:
اما انا فقد كنت انوي ان اخرج من الجيش في نهاية هذا العام لانني ما عدت احتمل ارهاب نوري السعيد..!

عمر الجيش

وليس هذا الضابط وحده.. ولكن هناك آلاف غيره .في قلوبهم جرح عميق وفي نفوسهم ذكريات اليمة .وكانت كلها تغلي وتفور في انتظار اللحظة الحاسمة!
وحينما تسأل اي صحفي جيش العراق الآن:

كم عمر هذا الجيش!

يقول لك على الفور: احسبه من ١٤ تموز..!

مجلة اخر ساعة تشرين الاول 1958

من اوراق عبد الحميد الرشودي

مكتبتي وكيف تكونت

عبد الحميد الرشودي

لم اكن غريبا عن الكتاب ولم يكن الكتاب عني غريبا، فقد فتحت عيني – حين فتحتها – على خزانة كتب كان والدي – رحمه الله – قد اقتناها وهي تتكون من عدة رفوف لها بوابة ذات مصراعين وكثيرا ما كنت افتح بوابتها واجيل الطرف في رفوفها مبهوراً.

وحين كنت ارى والدي وقد جلس ارضا. تحت المصباح النفطي وقد اسند ظهره الى الجدار واستغرق في القراءة اتمنى ان ياتي اليوم الذي اكون فيه قادرا على قراءة هذه الكتب والانتفاع بما فيها من العلوم والمعارف وشدما كان سروري يزداد حين يكلفني والدي باعادة كتاب الى الخزانة او جلب غيره بعد ان يصفه لي وصفا كاملا (جلده كذا وحجمه كذا) فاعود اليه بالكتاب المطلوب وقد ملأ السرور جوانحي وطفح البشر على قسماتي.

وحين انتقل الوالد الى رحمة الله اضطرت العائلة تحت وطاة الحاجة ان تبيع شطرا من هذه المكتبة وخاصة كتب الفقه والتفسير والحديث والعقائد وقد استخلصت لنفسي الكتب النحوية والادبية والبلاغية والتي اصبحت بعد ذلك نواة لمكتبتي فما ضننت به من تلك الكتب شروح الفية ابن مالك والاشموني والخضري والمكودي بطبعاتها الاولى ذات الورق الاصفر وكذلك من الكتب

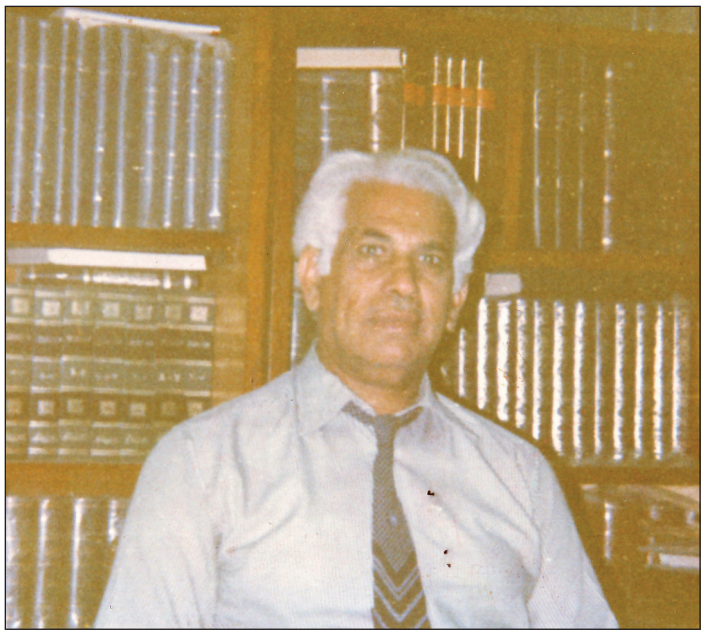

الادبية التي احتفظت بها معاهد التنصيص للعباسي والطراز في البلاغة للعلوي اليماني وديوان المتنبي يشرح البرقوقي في طبعته الاولى ١٩٣٢ ومن الكتب التاريخية ثلاثة اجزاء من تاريخ ابن خلدون وجزء يضم تعليقات الامير شكيب ارسلان عليه ومن كتب التفسير احتفظت بالكشاف للرمخشري ومن الحديث باجزاء من صحيح البخاري وغيرها من الكتب التي تلائم هوايتي وهي تمثل التالد من مكتبتي.

اما رحلتي الثانية مع الكتاب وهي تمثل الجانب الطارف منها – فقد بدأت سنة ١٩٤٣ عندما دخلت مدرسة متوسطة الكرخ فقد لمحت ذلت يوم بيد احد زملائنا ديوانا ضخما فطلبته منه وتصفحته فاذا به ديوان الرصافي (طبعة بيروت سنة ١٩٣١) فسألته متعجبا من اين لك هذا (يا عبدالغني) فقال انه يعود لاخيه الاكبر وانه اشتراه من سوق السراي فازمعت امري وصممت على اقتناء نسخة منه وقد وحدتني ذات يوم ادخل سوق السراي وفي جيبي دينار واحد فما كدت اخطو عدوة خطوات حتى وقفت امام مكتبة تحمل اسم (الاصلاح) لصاحبها صادق الشكرجي وكان رحمه الله بدينا انيقا يبدو لرائيه، وهو ببدلته البيضاء وحمائل سرواله وبربطة عنقه الحمراء، وكأنه طبيب جراح او صيدلي فجمعت شتات شجاعتي وسألته هل عندكم ديوان الرصافي فاجاب نعم ثم التفت الى احد الرفوف وقدم لي نسخة مجلدة تجليدا افرنجيا ومذهبة فسألته عن ثمنها فقال لي (٨٠٠ فلس) فنقدته الدينار واعاد لي ريالا (وحدة نقدية تساوي ٢٠٠ فلس) ولا تسل عن سروري الغامر حين ظفرت بهذا الديوان فاتخذته محرابا اتعبد بتلاوة قصائده حتى استظهرت اكثرها وازداد اعجابي بالرصافي وبروحه الوطنية ومشاعره الانسانية ولعل سر ولوعي بادب الرصافي بعد واهتمامي باثاره واخباره يعود الى هذا الديوان فانا واياه كما قال الشاعر:

اتاني هواها قبل ان اعرف الهوى
فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وقد علمت بعد ان اخذت اتردد على سوق السراي واطلعت على دخائله ان (صادق الشكرجي) كان مختصا ببيع القرطاسية وانه نادرا ما يتجر بالكتب ولكنها المصادفة التي ساقت هذا الفتى الساذج كان باعة الكتب انماطا اعاجيب منهم السهل السمح ومنهم المعاكس المغالي ومن الذين اذكرهم بخير ولمست فيهم مروءة وسماحة المرحوم نعمان الاعظمي (صاحب المكتبة العربية) فقد اتيته يوما لشراء كتاب (العقد المفصل) للسيد حيدر الحلي فسألته عن ثمنه فقال لي (٣٠٠ فلس) وبما انك طالب ادب فتشجيعا لك هات ربع دينار فاخذته شاكراً له هذه الاريحية.

ومن اولئك المكتبيين الذين تركوا اثرا طيبا في نفسي المرحوم قاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنى فما اشتريت منه كتابا الا واجرى عليه خصما مناسبا ولم اكن اعرف يومئذ هذا الاسلوب في البيع وان انسى لا انسى المرحوم محمود حلمي صاحب المكتبة العصرية فقد وجدت فيه طيبة وسماحة وقد ادركته في سنيه الاخيرة.

لقد اصبح سوق السراي نزهتي المفضلة الم به كلما توفر لدي شيء من النقود فقد كانت الكتب يومئذ زهيدة الاثمان واذكر اني اشتريت كتاب (صندوق الدنيا) لابراهيم (عبد القادر) المازني باربعين فلسا وكانت المجلات القديمة وخاصة مجلة الرسالة والرواية والثقافة مطروحة ارضا وقد وقف عليها من ينادي باعلى صوته العدد بعشرة فلوس فاستطعت ان اقتني منها اعدادا وفيرة هي اليوم قرة عيني وبهجة قلبي.

واذكر ان مجلدات من الجرائد العراقية القديمة قد طرحت للبيع عن طريق المزايدة وقد علمت انها تعود للمربي الاستاذ ساطع الحصري بعد ان اسقطت عنه الجنسية العراقية وقد ظلت ايدي الباعة تتعاور صحفه وكتبه مدة طويلة تارة عن طريق المزايدة واخرى عن طريق المساومة.

وقد ازدادت خبرتي بسوق الكتب وباعتها فلم يعد سوق السراي يشبع رغباتي فقد عثرت ذات يوم على قائمة كتب للمكتبة العربية في القاهرة وفيها تعليمات لمن يرغب في اقتناء كتبها بالاسعار المدونة ازاءها على ان ترسل ثمنها سلفا مع قائمة الطلب فزينت سذاجتي ان احول بعض الدنانير العراقية الى جنيهات مصرية فوضعتها داخل رسالة مع قائمة باسماء الكتب التي طلبتها وارسلتها بالبريد العادي وشد ما كان عجبي حين جاء ساعي البريد (عباس) الموزع الوحيد في الكرخ وهو يحمل رزمة من الكتب ومعها رسالة بالحساب فابردت له شاكرا صدقه وامانته

صورة لمكتبة الاستاذ الرشودي وقد مد فراش نومه في وسطها

وارسلت اليه المبلغ المطلوب مع قائمة جديدة بكتب اخترتها واني مازلت احتفظ برسائل هذا الرجل الشهم محمد احمد رغم مضي اكثر من اربعين سنة عليها اسبغ الله عليه ثوب العافية ان كان من المنتظرين وتغمده برحمته ان كان سبقنا الى لقاء وجه ربه الكريم.

وحين اصبح لي مورد ثابت من المال خصصت شطرا منه لاقتناء الكتب فقد عينت معلما في مدرسة التفيض سنة ١٩٥٢ وبذلك ازدادت قدرتي على الشراء..

بدأت اول الامر بجمع كتبي في زاوية ثم ضاقت فاشتريت (دولابا) من سوق الهرج فاختنق بعد مدة من الزمن فخصصت لها غرفة صغيرة من غرف الدار ثم ضاقت كما ضاق قبلها (الدولاب) ومن الانتفاع بها لذا رأيت ان اركنها في رفوف متوازية بحيث تكون جميعها تحت نظري وفي متناول يدي فان من عادتي اذا قرأت كتابا وخامرني شك في نص من نصوصه ان ارجع الى مظانه لاقارن بين ما اورده المؤلف وما هو مدون في المصدر المنقولة منه تلك النصوص وكثيرا ما كنت اقف على فروق واختلافات مما وقر في نفسي ان اكثر المؤلفين تعوزهم الدقة واحيانا الامانة او ان بعضهم يرجعون الى مصادر ثانوية ويوهمون القارئ بانهم استقوا من المضان الاصلية وذلك بسبب الكسل او التسرع وايثار الميسور على المعسور.

ان الكتاب مثله مثل الكائن الحي يعتريه من اسباب المرض والعطب ما يعتري الانسان، فالارضه هذه الدابة الرهيبة الفتاكة – على ضعفها وصغر حجمها – عدو مبين لم ينج منها حتى منسأة سيدنا سليمان فاذا اخذت طريقها الى المكتبة فاقرا على كتبها سورة الفاتحة. وكذلك المستعير الذي يلتوي بالكتاب حين يطلبه ولايعيده الى صاحبه ويعتذر باعذار باردة واهية مما جعل بعض اصحاب الكتب يضنون بكتبهم ولايعيرونها خشية ضياعها وقد رأيت بعض اصحاب المكتبات الخاصة قد كتب على كل كتاب من كتبه المهمة هذين البيتين.

اذا استعرت كتابي وانتفعت به
احذر وقيت الردى من ان تؤخره
وارده لي سالما اني شغفت به
لولا مخافة كتم العلم لم تره

ورغم اني قد اكتويت بنار الاستعارة وفقدت مني كتب نفيسة فاني لا اشايع الرأي القائل "ان الغبي من يعير كتابا والا غبي منه من يعيده".

ففي هذا قطع لسبيل الاحسان فليس كل كتاب تستطيع ان تصل اليه يدك فتقتنيه بل من الكتب ما هو نادر مفقود لذا فاني مع الرأي القائل بان "زكاة الكتاب اعارته" على ان يعرف المزكي من يستحق الزكاة: فيشكرها ولايكفرها.

ان مكتبتي على صغرها وبساطتها – هي واحتي في صحراء الحياة اوي الى ظلالها الوارفة وقطوفها الدانية وجدولها العذب النمير كلما امضني لهيب الهاجرة او حزبي امر من امور هذه الدنيا – وما اكثرها – فاجد فيها روحا وريحانا ثم استغرق بين سطورها في حلم صوفي سعيد لايوقظني منه الا عندما اجد النعاس قد عقد اجفاني واخذ رأسي يهوم واحيانها يسقط الكتاب من يدي من شدة الاعياء ولله در الشاعر الذي وصف الكتاب بهذا الوصف الذي جمع فأوعى وهو مما انشده ابن الاعرابي (معجم الادباء ٨/٧).

لنا جلساء ما نمل حديثهم
الباء مأمون غيبا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم من مضى
وعقلا وتاديبا ورأيا مسددا
فلا فتنة نخشى ولا سوء عشرة
ولا نتقي منهم لسانا ولا يدا
فان قلت اموات فما أنت كاذب
وان قلت احياء فلست مفندا.

انكلبرت كامفر
واضع مصطلح المسمارية

سالم الالوسي
مؤرخ وآثاري

علم بارز من الاعلام التي دخلت التاريخ والدراسات الآثارية من اوسع ابوابها رغم تخصصه بالطب فهو طبيب جراح وعالم بالتاريخ الطبيعي، ذلك هو الدكتور كامفر ، ويعرف في الادبيات والمصادر اللاتينية بأسم "انكلبرتوس كامفيروس" ويعزى الى هذا العالم فضل اطلاق اسم "المسمارية" على الكتابات التي اخترعها العراقيون القدماء منذ اكثر من سبعة الاف عام.

كانت هذه الكتابات في بداياتها على شكل صور ثم تطورت الى علامات ورموز اتخذت اشكالا شبيهة برؤوس السهام ومن هنا جاء مصطلح الكتابة المسمارية، الذي شاع في اوروبا منذ القرن السابع عشر الميلادي وذلك بعد وصول نماذج من هذه الكتابات المنقوشة على الاحجار والآجر الى ايطاليا من قبل الرحالة النبيل الايطالي بيترو ديلا فالا وقد سبق لهذا الرجل ان اشار الى هذه الكتابات برسالة بعث بها من مدينة شيراز في ١٦٢١/١٠/٢١ الى احد اصدقائه من المؤرخين في ايطاليا ولم يكتف بذلك بل قام باستنساخ نصوص من هذه الكتابات خلال زيارته اطلال برسيبوليس.

ثم جاء بعده الجوهري الفرنسي جان شاردان في سنة ١٦٧٤ الذي له الفضل في استنساخ اول نص من هذه الكتابات التي اطلق عليها اسم "كتابات الشبابيك" واعتبر هذا النص في حينه اقصر نص من نصوص الكتابات الاخمينية، ثم اقدم على نشرها في كتابه في سنة١٧١١ جاء فيه ان هذه العلامات هي كتابات وليست زخارف ونقوشاً وانها تقرأ من اليسار الى اليمين.

بعد شاردان جاء كامفر الى خرائب برسيبوليس عام ١٦٨٦ لينسخ النصوص نفسها ليطلق عليها اسم "كيونيتا" التي تطورت الى لفظة "كيونيفورم" اي المسمارية.

والدكتور انكلبرت كامفر ينحدر من عائلة المانية تسكن مقاطعة وسيفاليا الواقعة على مشارف الحدود الهولندية وبعد مدة حصل على الجنسية الهولندية.

في عام ١٦٧٤ حضر الى بلاد فارس بصفته سكرتيراً للسفير السويدي في البلاد الايراني، وبعد مدة عين بوظيفة كبير الاطباء الجراحين في شركة الهند الشرقية الهولندية العاملة في الخليج العربي وذلك في عام ١٦٨٥ وعلى اثر ذلك غادر اصفهان الى ميناء بندر عباس للالتحاق بوظيفته الجديدة، ومكث في هذه المدينة الى نهاية حزيران (يونيو) من سنة ١٦٨٨.

وخلال اقامته في بندر عباس كان يقوم بين الحين والآخر بزيارة اطلال برسيبوليس منذ عام ١٦٨٦ وعكف على استنساخ نصوص طويلة من الكتابات المحفورة باللغة البابلية على معالم هذه المدينة التاريخية التي كانت عاصمة للملوك الاخمينيين.

ثم اخذ يتأمل ويدقق في هذه العلامات ويناقش الموضوع

هل هي كتابات وعلامات الفبائية Alphabetic او كتابات وعلامات مقطعية Syllabic او انها علامات رمزية؟ ideographic

واخير استقر رأيه انها من الصنف الثالث اي علامات مقطعية.

وتشير الدراسات المتأخرة ان (كامفر) بادر الى نشر من هذه النصوص (٢٤) سطراً ثم ظهر ان مضامينها تمثل نصاً من لغة واحدة هي اللغة البابلية كانت منقوشة على الاقسام الجنوبية من السور الخارجي للقصر الرئيس في برسيبوليس،

وقد اعتبر علماء المساريات ان تلك المستنسخات تمثل اطول نصوص مسمارية مستنسخة في حينها لم تنشر بعد، وكان كامفر نشرها في كتابه المطبوع سنة ١٧١٢ بعنوان، Amoenitates Exoticae. Lemogoviae

وبمرور الزمن وتطور الدراسات المسمارية لم تعد مستنسخات كامفر ذات فائدة لان المكتشفات الاخيرة اظهرت مجموعة من العلامات اكثر وضوحاً، ولما كانت عملية الاستنساخ هذه التي قام بها كامفر اول محاولة من نوعها على نطاق المقياس الواسع وفي وقت مبكر فقد استحق عمله كل اعجاب وتقدير وعدت من الاعمال الرائدة.

كان الدكتور انكلبرت كامفر عالما متعدد الاهتمامات والمواهب، يتمتع بذوق فني رفيع، وكان خلال عمله في السفارة السويدية باصفهان كثير الاهتمام بالمعالم التاريخية والمعمارية وقد وصف العديد من تلك المعالم كالقصور والساحات والحدائق والنافورات مثل الاثر المسهور بـ (هشت بهشت) اي الجنائن الثمان وغيرها من الشواخص البارزة.

وبعد انتقاله الى بندر عباس، ورغم انه كان يعاني من اعتلال صحته تمكن من القيام بدراسات وافية في مجال التاريخ الطبيعي لمنطقة بندر عباس معززة برسوم توضيحية وتفصيلية للنبات واشجار النخيل، وفي نهاية حزيران عام ١٦٨٨ غادر الخليج العربي مبحراً الى مدينة بتافيا في جزيرة جاوة وتعرف اليوم بـ (جاكارتا). ومن هذه المدينة قام برحلته الشهيرة الى اليابان ولم نعرف بعد ذلك عن ظروف حياته سوى انه توفي عام ١٧١٦ وبوفاته انطوت صفحة لامعة من صفحات تاريخ الكتابات المسمارية.

الكرملي
مجلسه.. مكتبته.. رحيله

وداد نجم عبود
باحثة اكاديمية

مجلس الجمعة:

كانت بغداد في الربع الأول من القرن العشرين تعج بمجالسها التي تعقد في دواوين اسر بغداد واعيانها، إلا ان قيمتها العلمية تتفاوت من حيث روادها وحاضريها وما كان يجري فيها من مناظرات ومناقشات رفدت التيار الفكري بالكثير، ولولاها لأنطوى الكثير من اخبار العلم والعلماء، وكانت هذه المجالس والندوات كاسواق العرب في الجاهلية والاسلام، واليها يرجع الفضل في نهضة الحركة الفكرية والعلمية الحديثة، ولها الفضل في احتكاك الافكار وتحديد اتجاه الصحافة عبر المناقشات والمحاضرات التي تجري فيها، لاسيما تلك المجالس التي كانت تعقد في بيوت العلماء، فاستمد اصحاب الصحف المواظبون على حضورها ما يجري فيها من قضايا تخص الاستقلال والوطن والنهضة ومنها مجلس "الكرملي".

عقد "الكرملي" مجلسا كان في طليعة مجالس بغداد اذ كان محفلا ادبيا ومجمعا علميا، وقد وصف بانه "اكبر مدرسة علمية وادبية، ولغوية ، وتاريخية"، تواصلت جلساته زهاء ربع قرن، اذ امتاز بصفة لها رونق خاص اذ تجد فيه: (المسلم وغير المسلم متساوين اخوة في الوطن والانسانية، فيضم جمعا من اهل العلم ونخبة من الشعراء، والادباء، والمحامين، والكتاب، وكبراء الأمة ، واعيان البلد على اختلاف مللهم ونحلهم)، وكان هناك من يلازم المجلس في ايام الجمع ملازمة دائمة، فتتواجد نخبة العلماء وطالبي العلم في الساعة الثامنة من صباح كل يوم جمعة في في دير الاباء الكرمليين للاستماع الى ما يدور في ذلك المجلس من احاديث ومساجلات، مستقبلا "الكرملي" لهم بكل سعادة متفقدا الحاضرين ومستفسرا عن الغائبين، ثم يفتتح الجلسة بعد ان يستقر المقام بالحاضرين.

اعتاد "الكرملي" على ان يضع ما يتوارد اليه من الكتب والمجلات على منضدة كبيرة يلتف حولها الحاضرون للاطلاع عليها ومطلعا زائريه على الكتب المطبوعة والمخطوطة التي وردت الى خزانته حديثا، ثم يقرا بعضهم مقالة او يتلو قصيدة، فتناقش وتنتقد ويحمى النقاش والجدال في ذلك الموضوع ، ويغلب الغضب عليهم، فيسرع "الكرملي" الى اصلاح ذات البين بين المتجادلين، ويكون له الحكم القاطع، والقول الفصل باحضار كتاب من مكتبته، ثم يؤيده بكتاب ثان، وثالث...، دون ضجر او ملل، حتى ينهي الموضوع المختلف فيه، يدوم الاجتماع الفكري حتى الساعة الثانية عشرة ظهرا، بعد ان يدق ناقوس الكنيسة يدرك المجتمعون انه وقت الطعام للرهبان، فينصرف الحاضرون وتنتهي الجلسة.

امتاز مجلس "الكرملي" بمزايا لم تكن متوافرة في المجالس الاخرى التي كانت تعقد متزامنة في وقت انعقاده ب:

١. يعرف كل من يحضر الى المجلس ان لا يتحدث في أمور الدين والسياسة، اذ ان الحديث فيهما يورث العداوة والبغضاء، ولانهما من الموضوعات الوعرة، وبما ان المجلس يضم اشخاصاً من الاديان والطوائف المختلفة، ويضم الاضداد والنقائض من الاشخاص في الدين والسياسة، فلم يكن بوسعهم التطرق الى تلك الأمور، وان تطرقوا اليها لما استمر انعقاد المجلس.

٢. لم يقتصر الكلام في هذا المجلس على الاحاديث العلمية والمساجلات الادبية وحسب، بل ترى الطرائف، وابيات الشعر، والنكت، والنوادر الطريفة التي يعمر بها المجلس، وغالبا ما كان المجلس يغمر ويفتتح بمثل تلك الأمور التي تكون بمثابة الحافظ والدافع للبدء في النقاش بالموضوعات المطروحة.

٣. لشهرة المجلس الواسعة في بغداد يندر ان يكون هناك عالم، او مستشرق، او اديب يزورها دون ان يحضر هذا المجلس او يزور الكرملي على اقل تقدير.

٤. اسهم هذا المجلس في وضع اللبنات الأولى في بناء الحركة التعليمية في البلاد واذكائها لانه استقطب خيرة العلماء من المختصين في المجالات المختلفة بعامة، والمختصين في الحركة الادبية، والشعرية، والصحفية بخاصة، فعد خير ندوة ثقافية تجمع الشباب مع العلماء.

٥. لم تكن توزع في المجلس القهوة، او المرطبات، او السكائر ، كالمجلس الاخرى لان "الكرملي" راهب ولا يملك من متاع الدنيا شيئا.

لم ينقطع انعقاد المجلس زهاء ربع قرن إلا في اوقات معدودات هي:

× عند إصدار الكنيسة الكرملية في اواخر عام ١٩٢٤ م امراً يلزمه بالاعتكاف

× عند حضور اجتماعات مجمع اللغة العربية (مجمع فؤاد الاول سابقا).

× عند حضور اجتماعات المجمع العلمي العربي بدمشق.

×لزيارة قطر من الاقطار والفترات التي كانت حالته الصحية في تدهور.

مكتبة الكرملي:

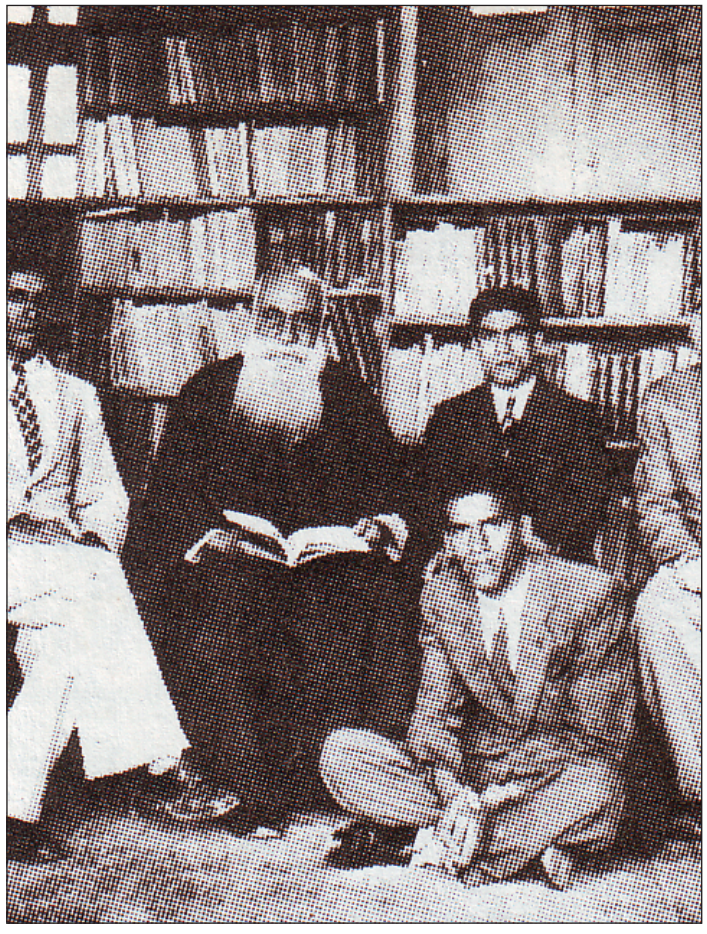

الكرملي في مكتبته مع عدد من محبيه

اشتهرت بانها اعظم خزائن العراق خاصة، واوسعها نطاقا، وكانت عامرة بالكتب المطبوعة والمخطوطات النادرة، إذ تحوي مراجع المصادر الغربية القديمة واللغة والادب والتاريخ، والبلدان، والتراجم، وغيرها من الموضوعات العربية والاجنبية مما انفردت به، فقد جمع كل ما وصلت اليه يده من كتب خطية ومطبوعة انتجتها مطابع الغرب والشرق، وبناء على ذلك قسم "الكرملي" مكتبته على قسمين.

اولهما: خزانة الكتب الشرقية: حوت (١١٠٠) احد عشر الف كتابا و(٢٧٠٥٣) سبعة وعشرين الف وثلاثة وخمسين تصنيفا خطيا مؤلفا لمختلف علماء العالم يقصدها طالبو العلم والعلماء من ديار قاصية ودانية، نخص منهم علماء النجف وكربلاء، والكاظمية، والاعظمية، والبصرة، والمانيا، وايطاليا، وفرنسا.

ثانيهما: خزانة الكتب الغربية: حوت على اكثر من (٨٠٠٠) ثمانية الاف مجلد فضلا عن المؤلفات الخطية التاريخية الشرقية، لاسيما – ما كان فيها يبحث عن العراق عامة، وبغداد خاصة من خرائط ورسوم وصور والواح حسنة النقش والطبع.

عني "الكرملي" بمكتبته، فجعلها اكبر مرجع للعلم والعلماء ومضمونها متاح لكل من يريد الافادة منها، على ان إخراج الكتب لم يكن مباحا، فمراجعتها تتم عادة داخل الدير، إذ اقبل على اقتناء كتبه بيد مبسوطة، دون تردد، فكانت له وللاجيال خير عون على البحث والتحقيق والتأليف وجمع من اجلها النقود الفضية والذهبية، وكان لا يقبل من المكتبات المقتنية لكتبه الا باوراق النقد الجديدة.

حرص كل الحرص على ما يقتنيه من الكتب حتى انه كان لا يفرط في إعارة كتاب واحد لمن يطلبه منه على الرغم من تشجيعه على المطالعة والتعلم، لندرة الكتب التي تضمها مكتبته ولأهميتها ونذكر ان "الكرملي" كان يملك نسخة من مخطوط معجم العين واراد احد تلاميذه ان يطلع عليه ليعده الى الطباعة فاجابه برسالة يقول فيها: "اني لاشجعك على عزمك طبع العين، لكنك لم تر نسختي فقد صرفت عليها اكثر من خمسمائة دينار.. ان اهبك هذا فهو مستحيل، بل ظلم ، بل سرقة، بل اثم عظيم.. هنالك معاجم اخرى، اما عيني فيبقى كعيني".

نفى العثمانيون "الكرملي" واحتلوا دير الاباء الكرمليين عام ١٩١٧ م، فكانوا اذا اشتد بهم البرد فعمدوا الى بعض الكتب في الخزانة، فاحرقوها ، واصطلوا بنارها، ثم نهب منها ما سلم من النار، اما الجزء المتبقي حفظ بجهد الاباء الكرمليين اذ اودعت في صندوق حديدي ووضعت في باطن الارض.

وعندما عاد "الكرملي" من المنفى، بدأ يجمع الكتب من سارقيها بقوة السلطة البريطانية فتجول مع البريطانيين في الازقة، والشوارع مستعينا بالاهالي ليمكنوه من اعادة كتبه المسروقة، وبدأ يجمع الكتب من جديد اما هدية، او مبادلة، او شراء جامعا نقودها من المبالغ التي يحصل عليها من مقالاته التي ينشرها

عقد "الكرملي" مجلسا كان في طليعة مجالس بغداد اذ كان محفلا ادبيا ومجمعا علميا، وقد وصف بانه "اكبر مدرسة علمية وادبية، ولغوية ، وتاريخية"، تواصلت جلساته زهاء ربع قرن، اذ امتاز بصفة لها رونق خاص اذ تجد فيه: (المسلم وغير المسلم متساوين اخوة في الوطن والانسانية، فيضم جمعا من اهل العلم ونخبة من الشعراء، والادباء، والمحامين، والكتاب، وكبراء الأمة ، واعيان البلد على اختلاف مللهم ونحلهم)

وظل يسعى لاستعادة نماذج من الكتب التي فقدت وتجديد ونماذج اخرى التي ضمتها خمس غرف من الطابق الثاني لدير الاباء الكرمليين.

وتلقى في احدى رسائله تعزية واسفاً لما حل بمكتبته، ولتخفيف وقع المصيبة عرض عليه مد يد العون لارجاعها الى سابق ازدهارها ولكي يسترجع مكانة مكتبته من جديد كمرجع لأهل العلم.

جمع الكرملي رسائلة التي كانت تصله يوميا من المستشرقين والعلماء العرب والاجانب واساتذته وتلاميذه في احدى زوايا مكتبته على شكل تل مكدس، ولما راها تلميذاه (كوركيس عواد) و(ميخائيل عواد) اقترحا عليه اخذها من اجل تبويبها وترتيبها وارشفتها، فوافق الكرملي على ذلك، واستمرا في عملهما ذلك زهاء السنة ونسقت على اساس ان لكل مرسل ملفاً خاصاً به وبعد اتمام العمل ارجع التلميذان.

الرسائل الى "الكرملي"، إلا انه لم يستلم رسائله منهما وقام بتحرير ورقة واهبا بطيب خاطر ذلك الركن من مكتبته الذي يحوي الاف الرسائل اليهما، وبعد وفاة صاحبها عمل التلميذان على نقل تلك الرسائل وايداعها في مكتبة المتحف العراقي كجزء من الوفاء له.

توفي "الكرملي" واخذت التساؤلات تظهر عن مصير تلك الخزانة التي كانت بغداد تتباهى بها من بين سائر خزائن الكتب في العراق والبلاد المجاورة، فارتأى الدير الاستئناس باراء ببعض اصدقاء الفقيد في ذلك الشأن، فاجمعوا على تهيئتها بالوسائل اللازمة لكي تنطبق عليها متطلبات المكتبة العامة من ثم اعادة فتحها، لكن الدير كان حينذاك في وضع مالي لا يساعده على تحقيق ذلك المقترح.

اقفلت المكتبة مدة غير قصيرة، فاقام ذووه (براتراند مارينى) ابن اخيه دعوى من اجل الحصول على مكتبة الفقيد لانه الوريث الشرعي لعمه، وكانت النتيجة ان اسقطت الدعوى وردت، بسبب عدم وجود سند لها وأن المتوفى راهب ومن شروط الرهبنة الفقر، فالرهبان لا يملكون شيئا وكل ما تحت ايديهم في حياتهم وبعد مماتهم يخص الدير والكنيسة، فضلا عن ان "الكرملي" كان قد وضع وصيته قبل ثلاث سنين من وفاته يهب فيها كل يملك ومن ضمن ذلك مكتبته الى الدير الذي عاش فيه والكنيسة الكرملية.

فضل الدير ان يحقق ذلك المقترح ويجعل المكتبة عامة من جهة ويرفع عن كاهله نفقات ذلك الاقتراح من جهة اخرى، فاهدى المكتبة فيما بعد – الى وزارة المعارف في عام ١٩٤٩م، اذ بلغ حجم الهدية (٧٣٣٥) سبعة الالاف وثلاثمائة وخمسة وثلاثين اثراً، منها (١٣٣٥) الف وثلاثمائة وخمسة وثلاثون من المخطوطات التي تخص التاريخ والادب والطب والصيدلة، و(٦٠٠٠) ستمائة الف مطبوع متنوع، وزعت بين مكتبتي المتحف العراقي ومتحف الموصل، واحتفظ الدير بالكتب الدينية والنصرانية والاجنبية، والمخطوطات القديمة، والمؤلفات الخطية الشخصية "للكرملي" لاسيما معجم المساعد.

مرضه ووفاته ورثاؤه:

اصيب "الكرملي" في عام ١٩٤٥ م بمرض عضال الى جانب تفاقم امراض الشيخوخة، وهو في التاسعة والسبعين من عمره، فالح عليه المقربون من اصدقائه وجوب التداوي والمعالجة، فانصاع الى رجائهم وسافر الى فلسطين في اوائل عام ١٩٤٦م، وكتب من هناك رسالة بعثها الى رفيقه (طه الراوي) يقول فيها: "... لقد تحسنت صحتي نوعا ما، لكن ضعف الشيخوخة لا يداوى، ولا امل في شفائه"، ثم تحسنت صحته قليلا فعاد الى بغداد في اوائل تشرين الثاني ١٩٤٦ م، على الرغم من الحاح اصدقائه عليه ضرورة بقائه في فلسطين مدة اطول، إلا انه اراد ان لا يموت إلا في الدير الذي عاش فيه معظم حياته مرددا امنيته الوحيدة هو ان يرى العراق قبل ان يموت.

تحققت امنية "الكرملي" والى جانبها رعاية السيد (ارشد العمري) لانه بعث برسالة الى لجنة وزارة المعارف بتاريخ (١٠ تشرين الثاني ١٩٤٦م)، لعدم تمكنه من حضور جلسة اللجنة لهبوط قواه الجسدية معتذرا الى الجميع واصفا اياهم بالكرماء لقبولهم اعتذاره، وقد ذكر ان الرهبان اكرهوا على عمارة الدير المتهدم ولا يستطيعون مساعدته طبيا، ويطلب المساعدة الطبية من وزير المعارف واصفا اياه بانه افضل من قدر العلماء لاسيما من بلغ الثمانين من عمره، فتلقى عناية من السادة الوزراء، واعضاء لجنة التأليف والترجمة، والصحافة اشد الاعتناء إذ اخبر "الكرملي" تلميذه عنهم بقوله: "ان رعايتهم خففت عني الام الشيخوخة، واوجاع المرض وبعثت الغبطة الى نفسي".

ويذكر (رفائيل بطي) قول الكرملي في ايامه الاخيرة: "لا يخيفني الموت يا ولدي لكني متألم إذ ستحول المنية بيني وبين خدمتي للغة العربية التي افنيت عمري في خدمتها"، وفي اوقات اخرى كان يشكو سأمه من الحياة وطولها وهو يعاني اوجاعاً فكان كلما قرأ نعي احد المعمرين او الشيوخ يحسده لأنه نجا من هذه الحياة ويتذكر قول الشاعر:

فمتى اهلك فلا احفله
بجلي الان من العيش بجل
من حياة قد مللنا طولها
وجدير طول عيش ان يمل

اشتد المرض عليه ووصف "الكرملي" ايامه الاخيرة بقوله: "لقد نفذ الزيت من المصباح، وها إنني ارى الحياة تفارقني مفارقة الضوء لذلك للمصباح".

تردت صحته، وتبددت قواه فتم نقله الى المستشفى التعليمي ببغداد، فلم يلبث طويلا حتى فارق الحياة في صباح يوم الثلاثاء السابع من كانون الثاني عام ١٩٤٧م، عن عمر يناهز احدى وثمانين سنة وخمسة أشهر، شيع جثمان الفقيد من المستشفى الى كنيسة اللاتين، وشارك في تشييع الفقيد جمهور من طبقات المجتمع باختلاف مللهم، ودفن في الساحة عند الباب الغربي للكنيسة إذ كان في السنوات الاخيرة يجلس هناك صباح كل يوم من ايام الصيف.

ترك الكرملي وصية وضعها منذ العام ١٩٣٦م، ثم اكدها في العام ١٩٤٣م، وهب مكتبته وكل ما يملك الى الدير الذي عاش فيه معظم سني حياته، وكان مجمل ما تركه للدير مكتبة عريقة ومبلغ (٦٠٠٠) ستة الالاف دينار كان قد جمعها من كتاباته الصحفية.

نعته الاوساط الصحفية، والادبية في العراق في العراق والعالم العربي، والمستشرقون في العالم متطرقين الى نبذة مختصرة عن تاريخ حياته ونضاله في سبيل العلم ذاكرين اهم اعماله اللغوية، والتاريخية والصحفية، الى جانب رثائه بالقصائد الشعرية ذاكرين فيها شخصه الكريم واثاره الصحفية ونذكر مثالا لذلك:

لغة العرب هد صرحها موت
همجي يتولى عليها بالحدثان
جمع الموت بالرصافي وطه
وانستاس صفوة الخلان
يا موت لطفا بالعراق فأنه
فقد الاسد من ليوث البنان
انستاس لا تبعد فذكاك خالد
الذكر للانسان عمر ثان

وقول الشاعر:

عشنا وعاشت في الدهور بلادنا
جوامعنا في جنبهن الكنائس
سوف يعيش الشعب في وحدة له
عمائمنا في جنبهن القلانس

وقول الشاعر:

فالقلب من دين ابن مريم وحبه
والفكر من لغة النبي محمد (ص)
ان ابن مريم والنبي محمدا
نوران نور هدى ونور توحد

اقيم له مجلس تأبيني بمدرسة القديس يوسف اللاتينية، حضره جمع من الوزراء والنواب والاعيان وكبار العلماء والادباء واصدقائه وتلامذته ومحبيه، الى جانب مجلس تأبيني مماثل في نادي الكرمي بفلسطين كجزء من الوفاء له.

مقاهي البصرة القديمة

عبد الكريم العامري
باحث فلكلوري

مقهى العشار في العهد العثماني

لنأخذكم معنا في جولة قصيرة عبر زمن البصرة لنقلّب أوراق مقاهيها بعمّالها وروّادها.. وكل ما جاء هنا من معلومات أخذناها عن لسان ناس عاشوا تلك الفترة واحتفظوا بها في رؤوسهم التي ما تزال تشعر بالحنين اليها:

* مقهى التجار:

في منطقة العشار وفي سوق التجار شيّدت هذه المقهى في فترة الثلاثينيات من القرن الماضي وأخذت اسمها من اسم السوق الذي كان ملتقى لتجار البصرة وقد كان روادها من الشخصيات المعروفة في لواء البصرة آنذاك ومنهم(عبد الكريم الخضيري وعبد النبي الشمخاني والحاج سليمان الذكير وعبد القادر باشا أعيان والحاج إبراهيم البجاري وإبراهيم الحاج عيسى والحاج عيسى محمد صالح والحاج محمود فخر الدين وهاشم النقيب وغيرهم من الشخصيات والتجار) وذكر لنا الحاج جاسم عبود عبد الكريم ابن صاحب المقهى أن مزايدات كانت تجرى في المقهى ما بين التجار على التمور خلال الموسم وتتم الصفقات بينهم ومن الأشخاص الذين عملوا في مقهى التجار نذكر (كريم العجلاج وسعد البغدادي وعبود عبد الكريم) وفي فترة التسعينيات من القرن الماضي انتقلت المقهى الى موقع آخر قرب الضريبة القديمة في منطقة الصالحية وكان يرتادها آنذاك عدد من الوجهاء نذكر منهم (الحاج سالم العبادي والشيخ لعيبي حنظل والشيخ عبود التميمي والسيد كاظم البطاط والسيد إسماعيل الجابري والشيخ غازي بن محمد العريبي) حيث كان يعمل بها (جاسم عبود عبد الكريم وهاشم عبد الكريم) وكان يرتادها أيضاً عدد من الأدباء والصحفيين.

المقهى تحولت في بداية هذا القرن الى اسم آخر وسميت (مقهى المجالس العربية) حتى بيعها وغلقها عام ٢٠٠٣.

* مقهى أم السباع:

أسسها المرحوم الحاج ناجي المعروف (أبو العشر) عام ١٩٣٣ وتعتبر من أقدم مقاهي البصرة وتقع في منطقة البصرة القديمة، سميت المقهى بهذا الاسم كون بوابتها تحتوي على تمثالين لأسدين، وقد كان يرتادها كثير من الفنانين والأدباء نذكر منهم المرحوم المطرب الكويتي (عوض دوخي) والمرحوم الدكتور (عبد الوهاب لطفي) وكان المرحوم السيد صبري أفندي (أمين صندوق البصرة) أو كما تقول كلمات الأغنية التراثية(صندوق أمين البصرة) من المدمنين على الجلوس في هذا المقهى ولساعات طويلة وحدثنا السيد (صبيح جعفر حسن) وهو واحد من أصحاب المقهى بأنه كان منتدىً أدبياً وثقافياً ومن عمالها المرحوم (عبد الوهاب أبو الشوربة)الذي كان عضواً في حزب الاستقلال ويحرض الناس ضد الاستعمار والدفاع عن فلسطين وقد أدخلت الى المقهى لعبة البليارد لأول مرة في البصرة بعد ان كانت تقدم النارجيلة ولعبة الدومينو والمقهى معروف على نطاق عربي وعالمي وترد له الرسائل من الذين سبق وإن زاروها من جميع دول العالم كما كتب عنها في الكثير من الصحف والمجلات المحلية والعربية مثل (المتفرج والفكاهة وألف باء والعربي)وكان من روادها أيضاً المرحوم المؤرخ (حامد البازي) واللاعب الدولي توفيق حسين في لعبة كمال الأجسام واللاعب الدولي قاسم خشم في كرة القدم والمصارع محمد بهلوان وقد تعرض المقهى لقذائف المدفعية خلال حرب الثمانينيات ولمرتين وأما الذين عملوا فيها (عبد الوهاب ابو الشوربة عام ١٩٣٣ وكاظم العاني عام ١٩٤٦ وحسن هزاع عام ١٩٥٥ وخليل سلوم عام ١٩٥٨ وحسين أبو علي عام ١٩٦٣ والحاج جعفر حسين عام ١٩٦٧).

* مقهى الناصرية:

هذه المقهى تأسست في أواخر الثلاثينيات وموقعها في منطقة العشار (شارع المطاعم حالياً) وكانت ملتقى للوافدين من الناصرية كما يرتادها المسافرون كونها تقع قريباً من كراج سيارات الناصرية.

* مقهى الشناشيل:

كانت في بداية الثلاثينيات تسمى مقهى (هاتف) نسبة لصاحبها ومؤسسها السيد (هاتف عبد المطلب) وكان من روادها في تلك الفترة (عبد القادر باشا أعيان والشيخ صالح المناصير وعبد السلام باشاعيان) كما أن المطربين (عوض دوخي وعبد الحميد السيد) كانا من روادها والمؤرخ المرحوم حامد البازي وزين العابدين النقيب وتعتبر من أقدم المقاهي في البصرة وقد أعطى بناؤها المعماري التراثي جمالية للمكان حيث الشناشيل والأقواس وكانت تجرى فيها لعبة المحيبس المعروفة خلال أمسيات شهر رمضان المبارك وتلعب فيها أيضاً (الدومينو) والطاولي والشطرنج ومن عام ١٩٧٣ أدخلت لعبة البليارد فيها.

* مقهى منكاش:

شيّدت في منطقة الجمهورية (الفيصلية سابقاً) يعود تاريخ إنشائها إلى بداية الأربعينيات أسسها المرحوم(محمد حسن مثنى) وبعدها عمل فيها الحاج (جمعة منكاش) وسميت المقهى باسم أبيه وكانت ملتقى لوجهاء المناطق وشخصياتها أمثال الحاج حاتم الجوزي والمحامي محسن الزبيدي ثم كانت ملتقى للشعراء الشعبيين (مهدي السوداني ونوري حياز وعلي الكعبي وفالح الطائي والمرحوم عطا عودة الشهد وجبار اللامي وصابر خضير وعباس جيجان) وكانت تعقد فيها أماسٍ في شهر رمضان وتقام فيها لعبة المحيبس.

* مقهى البدر:

أسسها السيد مهدي سليم البدر عام ١٩٤٥ وتقع على ضفاف شط العرب وتعتبر من أهم مقاهي البصرة الثقافية في مرحلة أواخر الخمسينيات والستينيات كون جميع روادها من الأدباء والمثقفين أمثال (بدر شاكر السياب ومحمود عبد الوهاب ومحمد جواد جلال ومحمد الحبيب ومحمود الظاهر ومحمد خضير ومحمود البريكان وزكي الجابر وجبار صبري العطية والمؤرخ حامد البازي والدكتور عبد الهادي محبوبة رئيس جامعة البصرة آنذاك والدكتور نزار الشاوي والدكتور مصطفى الخضار ومصطفى النعمة والسيد إبراهيم الخضيري ورجب بركات

ومهدي العطية والدكتور شاكر البجاري وغسان المناصير وعبد الخالق الحمد) وأسماء أخرى من مثقفي المدينة.

* مقهى طارش:

أسست عام ١٩٤٠ وموقعها في منطقة أم البروم وكانت ملتقى لأهالي العمارة كونها قريبة من كراج بصرة- عمارة وكان صوتا حضيري أبو عزيز وداخل حسن ينبعثان من غرامافون المقهى عبر اسطواناتهما وفي حديث سابق لنا مع صاحب المقهى (طارش سهل مطر) منذ ستة أعوام قال (في نهاية الستينيات كان يرتادها (تومان) الشخصية الطريفة في مدينة البصرة والذي يعزف الناي بأنفه ومؤسسها هو الحاج حبيب الملاك وقد عمل فيها منذ ذلك الحين مجيد مشيمش وانتقلت بنايتها عام ١٩٧٤ الى جوار سينما الكرنك والتي هدمت قبل حرب ٢٠٠٣ في العراق.

× مقهى الصكارة:

تأسست في بداية الأربعينيات وتقع في منطقة البصرة القديمة بالقرب من السوق الحالي وتعتبر ملتقى للصكارة في المدينة ونعني بهم أولئك الذين يهتمون بتربية الطيور والدجاج الهندي والتركي وكانت تجرى فيها مسابقات (الصكارة) للتباري بين الديكة وهي من الألعاب الشعبية واصل هذه اللعبة من الهند ويعود تاريخ اللعبة كما ذكر احد رواد المقهى إلى العصر العباسي حيث أدخلت هذه اللعبة الى البصرة عن طريق الزائرين كونها ميناء للبواخر القادمة من البحر وللعبة جمهورها وحكاياتها الجميلة سنأخذكم معها في استطلاع آخر قريب.

* مقهى السيمر:

أسسها في بداية الأربعينيات السيد (زكي) في منطقة البصرة القديمة مقابل المحكمة القديمة وعمل فيها (فاضل القهوجي) ثم المرحوم ناصر أبو مؤيد وكان يرتادها آنذاك مختار المنطقة (محمد الحلفي) ومن ميزاته انه يحمل سوطاً ليضرب فيه كل من يتشاجر من أهالي المنطقة بعد جلسة تعقد ما بين المتشاجرين .. ومن روادها أيضاً (صبري أفندي) كون سكنه قريباً من المقهى .. سميت المقهى بهذا الاسم نسبة الى منطقة السيمر حيث كان يشق المنطقة نهر تدخله الزوارق (البلم العشاري) وهي محملة بالقصب والسعف.

* مقهى الجمعية:

تأسست في بداية الثلاثينيات وتقع في منطقة سوق هرج في منطقة البصرة القديمة.

* مقهى شنيف:

تأسست في بداية الثلاثينيات في منطقة سوق هرج في العشار مقابل جامع الخضيري.

* مقهى زاير علي:

شيدت في الخمسينيات من القرن الماضي بالقرب من سينما الحمراء في الجانب الثاني من نهر العشار وصاحبه الزاير علي (ابو طالب) حيث كان ملتقى لوجهاء البصرة ورؤساء عشائرها.

* مقهى سيد هاني:

عمل السيد هاني في الستينيات في عدة مقاهي حتى استقر به المقام في مقهى خاص به شيده في بداية الثمانينيات من القرن الماضي في منطقة العشار وهو مقهى كان يرتاده وما يزال عدد من الأدباء والصحفيين والفنانين وهو ملتقى أدبي وثقافي في كل ايام الإسبوع.

* خاتمة:

ها نحن نصل الى نهاية جولتنا بعدما أخذناكم الى سنوات لم يعشها اغلبنا ولكنها سنوات ستبقى محفورة في ذاكرة أبناء المدينة وهناك عدد من المقاهي التي لم نستعرضها ولكن سنكتفي بذكر اسمائها منها مقهى حسون أبو التتن وشيدت قرب مقام الأمير ومقهى عبد عبد السادة قرب ساحة سورين وفيها اقدم (مقهجي) في المدينة ومقهى أبو كاظم في منطقة العشار.. وقبل ان أسدل الستار لا بد ان اشكر زميلي محمد الدخيلي الذي جمع لي بعض المعلومات عن تلك المقاهي.

شارع ابي نؤاس شاهد من الزمن الأنيق

يحتفظ بالكثير من الذكريات.. وتميز بمقاهيه الصيفية

عبد حمود الكناني
باحث في التراث

كبر الحنين وطال واتسع الى شارع أبي نواس هذا الشارع الذي كان انيسا لطفولتنا ورفيقا لصبانا فقد كان يحتضننا ايام الاعياد الكبيرة بكازينوهاته العامة الجميلة التي تتراصف على ضفاف النهر الخالد دجلة الخير مكونه عقداً جميلاً يطوق جيد النهر ابتداءا من جسر الجمهورية وحتى قريباً من الجسر المعلق وزوارقه ويخوته البديعة التي كانت تجوب النهر تمخر عباب امواجه الرقراقة حتى جزيرة ام الخنازير واحداقها الفناء واشجاره الباسقة الشماء اذ كانت العوائل تفترشها ايام الاعياد والاماسي الجميلة ويحفل بمطاعم السمك المسكوف والمقاهي الشعبية والسياحية والكورنيش الخلاب وتطل عليه قاعات الفن التشكيلي والمباني العصرية والمطاعم الراقية من الجانب الاخر هذا الشارع وبكل مزاياه وفرادته والشعبية وشهرته اغتيل من قبل النظام البائد حيث اختفت تلك الكائنات الساحرة التي كانت تطفو فوق مياه دجلة واختفت مظاهر الابتهاج ومباهج الشارع المؤثرة وغدت حدائقه جرداء قاحلة بعد ان كانت غناء مضاءة بالازهار المتنوعة والاضواء الملونة ولعل الثير من ابناء جيلي ومن الجيل الذي سبقني والجيل اللاحق بعدي ما زالت ذاكرته طرية تحتفظ بالكثير من الصور اللطيفة في تلك الكازينوهات لاسيما بين فترتي الغروب والمساء إذ كانت اجهزة التسجيل.

شمس الاصيل تطلق اغاني كوكب الشرق أم كلثوم لتكتمل تلك الاجواء الرومانسية على تلك الضفاف الساحرة فقد كانت الامواج تتصافح وتتعانق تحت تلك الكازينوهات واحياناً تنساب بين المقاعد وسط بهجة وحبور واستراح الجلاس لتمضي الساعات الممتعة دوما دون ملل وضجر وكم من مرة استرجعنا مقاعد الكاردينيا وقت الغروب وقد كان قداحها الدامي الاحمر يمنح المكان ألقا وجمالا تمتزج مع تلك اللحظات الشاعرية انغام شمس الاصيل وصوت ثومة الشجي وتلك الكلمات الحالمة والمؤثرة عندما يفرش الليل عباءته المطرزة بالنجوم مني جو راق وصاف يتناهى الى الاسماع خلاله ذلك الصوت مجدداً مترنما بالاطلال او فكروني او بعيد عنك وانت عمري او هجرتك او لسه فاكر وتطول القائمة. مع تواصل الليالي لقد تميز هذا الشارع الاثير عند العراقيين في تلك الحقب الزاهرة بمزايا اخرى منها احتضانه المراكز الثقافية الاجنبية مثل المركز الثقافي السوفيتي الذي كنا نحضر العروض السينمائية التي يقدمها للجمهور في حدائقه الصيفية والتي اغلبها افلام حربية من الحربين العالميتين الاولى والثانية فضلا عن الاستفادة من المطبوعات والكتب التي يوزعها والمركز الثقافي الفرنسي الذي هو الاخر زوال نشاطا ثقافيا انسجم مع طبيعة الشارع واجوائه مثل اقامة الحفلات الموسيقية والعروض المسرحية وعرض الافلام والبرامج.

ويشكل هذا الشارع فرصة للشباب من اجل الاحتفاظ باجمل واعطر الذكريات فيه مستفيدين من كثرة وجود المحورين فيه وشقوا تلك العلاقة الحميمة بصورة ارخت لصباهم وشبابهم وذكرياتهم الصافية النقية العذبة ان كانت قرب ضفاف النهر التي كانت امواجه تصطدم بحافات الكازينوهات او تنساب تحتها حيث كانت معلقة وكانها تطفو على سطح الماء الازرق الصافي وبدت لقطات اخاذة ام على حدائقة وجناته الفواحة واشجاره الوراقة الظلال وكان قبلة للزوار والسياح الوافدين الى بلادنا حيث وجدوا فيه واحة تغرد فيها البلابل وتصدح فيها العصافير وتطلق الحمام واليمامات هديلها الذي يبعث في النفوس رغبة في التجوال بين النخيل والاشجار.

ان الشارع اليوم يتطلع ليدحانية مثقفة صادقة تمسح دموعه الندية وتمده بالثقة والحيوية من جديد لان يصبح علامة اشراق جديدة في بلادنا الناهضة بعد السنين العجاف فهل سيعود هذا الشارع العتيد الى سابق عهده والى عصره الزاهر، لقد قدمت العديد من الافكار بتطوير واحياء الشارع واعادة الروح له من قبل مختصين وجهات هندسية وغيرها بعد ان تعرض الى صيانة وعشوائية جلبت له الاضرار وليس المنافع ومن الافكار التي تطرح لتطويره والارتقاء به في رفع التجاوزات كافة الحاصلة في الابنية من قبل الاهالي ابتداء من جسر الجمهورية وحتى جسر الجادرية وتنظيم الحدائق مجدداً "محافظ بغداد" فيه مثل المقاهي والكازينوهات واضفاء الطابع التراثي عليه بانشاء خيمة عربية في الحدائق مع مضيف من القصب البردي وتجهيزها "باوجاغ" لصنع القهوة العربية مع ايجاد استوديوهات ومختبرات تصوير وطبع الصور التذكارية وبيع افلام وتأجير الكاميرات للسياح العرب والاجانب مع توفير المرافق الضرورية التي تتطلبها الحالة الامنية والخدمية وانشأ مرفأ لليخوت لنقل السياح والمواطنين في جولات نهرية ممتعة على امتداده في مدينة بغداد والى جزيرة ام الخنازير لقد حمل الشارع اسم الشاعر ابي نؤاس احد ابرز شعراء الغزل والخمريات الذي توفي في بغداد سنة (١٩٨ هـ) واستشهد بكثرة محال الانس فيه كذلك اشهر بمطاعمه العديدة ولاسيما مطاعم السمك المسكوف الاكلة الشهيرة التي انتسبت شهرتها في شارع ابي نؤاس ولكن بسب وقوعه على الضفة المقابلة يشكل هذا الشارع فرصة للشباب من اجل الاحتفاظ باجمل واعطر الذكريات فيه مستفيدين من كثرة وجود المصورين فيه ووثقوا تلك العلاقة الحميمة بصورة ارخت لصباهم وشبابهم وذكرياتهم الصافية النفسية العذبة ان كانت قرب ضفاف النهر التي كانت امواجه تصطدم بحافات الكازينوهات او تنساب تحتها حيث كانت معلقة وكانها تطفو على سطح الماء الازرق الصافي للمباني الرئاسية قاد صدام باصدار اوامره للسيطرة على الشارع وتغيير وضعه ليسمى شارعا عاديا خاليا من اية بصمات في حياة العراقيين او لمسة في المحيط العام وتقول ان الجهة الوحيدة التي يمكنها مد يد العون للشارع والارتقاء بشأنه واعادته الى صورته السابقة التي مازالت عالقة في اذهان العراقيين هي محافظة بغداد الجهة الامينة على بغداد ومواقعها وشواهدها ومدنها وشوارعها ومعالمها الاخرى وهذا الشارع احد المعالم المهمة في المدينة والذ جملته المنحوتات والتماثيل فيه واشهرها تمثال الشاعر ابو نؤاس وشهرزاد وشهريار وتماثيل اخرى توزعت على امتداد النهر فهل ستعود لياليه واجواءه من جديد ليعيد البهجة والانشراح الى وجوه البغداديين الذين قاسمهم ايامهم الزاهية في السنين التي خلت وكان شاهدا على افراحهم ومسراتهم في ايام الاعياد والمناسبات وعلى مباهج الشباب وهم يغوصون في النهر ايام الصيف او عندما يمتطون الزوارق الصغيرة واليخوت لتأخذهم في جولته الى الشمال شمال بغداد حيث بساتين وحقول الشماسية والى الجنوب حيث جزيرة ام الخنازير ومروج الزعفرانية واشجارها في ايام الاعياد وغيرها. وتشمل من جديد البنايات والمواقف على امتداده الساحرة ليكون احد العناصر التي تمنع الفرح والحبور للمواطن المنهك التعب في هذه الايام وعرض للايام الجميلة في الماضي القريب والمقبل من الايام.

جمعية (انوار الفن) التمثيلية عام 1940

توماس حبيب
من رواد الحركة المسرحية

في بداية النصف الثاني من الثمانينات وفي اثناء وجودي في بغداد، التقاني السيد احمد سلمان عطية – ابلغني انه يواصل دراسته في كلية الفنون بجامعة بغداد للحصول على درجة الماجستير في الاخراج المسرحي، باشراف الدكتور عوني كرومي، وانه في حاجة الى ان يحاورني في نشاطي المسرحي كمخرج لاعمال "جمعية انوار الفن التمثيلية" التي ابتدأت عملها عام ١٩٤٠ فاستجبت اليه، وحققت رغبته في تسجيل حواره معي حول دوري في الاخراج المسرحي.. بالصيغة التي افاد منها السيد احمد سلمان عطية الذي اكمل دراسته في مايس ١٩٨٧ وحصوله على درجة ماجستير.

واليوم وبعد ما يقارب الثماني سنوات اطلعت على الرسالة التي لم يتم طبعها في كتاب حتى الان، واشهد ان السيد احمد سلمان عطية، كان وفيا وامينا في الافادة من ذلك الشريط الصوتي الذي سجله ولولاء لضاعت تلك الصفحة من تاريخنا المسرحي، فهو الذي بادر وهو الذي حاور وسجل ودون.

والحق اقول ان الذاكرة قد ضعفت والغبن قد عم خاصة ما يتصل بهذه الجمعية التي ولدت في خضم الحرب العالمية الثانية، وعند مستهل عقد الاربعينيات.

ان جمعية انوار الفن التمثيلية، هي اول جمعية تمثيلية تحصل على الاجازة، بموجب قانون الجمعيات لسنة ١٩٢٢، وفي تلك الفترة وللانصاف اذكر ان المرحوم عبد المنعم الجادر، الصحفي العراقي اللامع كان قد وثق تاريخ الجمعية وذلك في كتاب "من تاريخ النهضة الفنية في العراق الحديث" المصادر في بغداد عام ١٩٥٠ الذي يعد من اهم لمصادر في تدوين تايخ الفنون في القطر وقد افاد منه مؤرخو الحياة المسرحية في العراق خاصة، واخص منهم، الدكتور علي الزبيدي والدكتور عمر الطالب والباحث احمد فياض المفرجي. بعد اجازة الفرقة (الجمعية) عقدت اجتماعها الاول مساء الجمعة العشرين من كانون الاول عام ١٩٤٠، في مقرها الكائن في فندق زبيدة الواقع في شارع الرشيد، وفي هذا الاجتماع تم انتخاب اول هيئة ادارية وقد تالفت من السادة توماس حبيب رئيسا وفؤاد حبة سكرتيرا وجوزيف عجاج امينا للصندوق واسماعيل حقي مديرا للادارة والى جانب هذه الشخصيات فقد انتسب الى الجمعية العديد من الفنانين، اذكر منهم الطرابلسي مصطفى واسماعيل الامين ولويس توماس وسليم بطي ورؤوف توفيق المحامي الذي عمل مشرفا لغويا لنصوص وعروض الفرقة، وكان من اعضاء الفرقة الاذاعي المعروف عبد الحميد الدروبي الذي عرف ببرنامجه "الرفوف العالية" ومجيب حسون والممثل الكوميدي والرسام اللامع حميد المحل والممثل علي الانصاري الذي كان عضوا في الفرقة القومية للتمثيل قبل رحيله والممثل النابغة فوزي محسن الامين.

وبعون هؤلاء الفنانين واخرين ممن لا تسعفني الذاكرة في تدوين اسمائهم وفقت في تقديم مجموعة من العروض المسرحية على خشبة الصالات التي كانت قائمة في بغداد وفي جميع اطراف العراق، في الاربعينيات ومن هذه الاعمال التي اخرجتها كانت مسرحيات الزوجة الخائنة وهارون الرشيد، وابو عبد الله الصغير وجريمة الاباء، والصحراء والاستعباد ومجنون ليلى ومصرع القيصر ويوليوس قيصر وعبد الرحمن الناصر، وقد شارك في تمثيل ادوارها فوزي محسن الامين واسماعيل حقي وجورج جبوري وانطوانيت اسكندر شقيقة المطربة عفيفة اسكندر وقد عرضت هذه المسرحية في قاعة الشعب خلال يومي ١٢، ١٣ نيسان ١٩٤٥.

وكان لعرض مسرحية "عبد الرحمن الناصر" آخر ملوك الاندلس اصداء واسعة في الصحافة العربية، وقد اشار الى ذلك مؤلف كتاب (النهضة الفنية في العراق الحديث) حيث قال: كان لهذه المسرحية دوي عظيم في عالم التمثيل في الشرق العربي اذ قام بادوارها اقوى الممثلين العراقيين وصرفت عليها مبالغ طائلا وكتبت عنها المجلات والصحف المصرية والسورية واللبنانية بما يشرف الفن العراقي.

وقد نجحت نجاحا فنيا كبيرا ولكنها خسرت لعظم المصاريف التي صرفت عليها.

تلك الصفحة من صفحات حياتي وورقة من اوراقي في الفن ، اردت كشفها ونشرها، افاد منها الفنان السيد احمد سلمان عطية في رسالته الموسومة (دور المخرج في المسرح العراقي المعاصر).

مجلة الاذاعة والتلفزيون 1988

معروف جياووك

رفعة عبد الرزاق محمد

نقدم في هذا المقال، صورة تاريخية اخرى، لشخصية كردية كان لها التأثير الواضح في تاريخنا الحديث، وكان لها المواقف السياسية في خدمة الدولة العراقية في سنوات تأسيسها الاولى، انه المرحوم معروف جياووك.

ولد معروف علي اصغر جياووك عام ١٨٨٥ – وقيل ١٨٨٤ في بغداد في اسرة كردية معروفة ، تنتمي الى عشيرة (بالك) التي تستقر في قرية (سيرشمه) في منطقة راوندوز، كان جده الحاج مولود سعدي من كبار العلماء وسماه الناس ببديع الزمان، اما ابوه ويدعى (علي اصغر افندي) فقد كان اماما عسكريا لصنف (الاوردو) في الجيش العثماني ببغداد ، اكمل معروف جياووك دراسته الابتدائية والاعدادية في بغداد سنة ١٩٠٢ ثم ذهب الى عاصمة الدولة (اسطنبول) لاكمال دراسته واثر الدخول الى المسلك الوظيفي والدراسة في وقت واحد، غير ان الاحداث التي وقعت في اسطنبول بعد الانقلاب، الدستوري سنة ١٩٠٨ القت بظلالها على مسيرة جياووك فقد وقف موقفا عدائيا من اصحاب الانقلاب، حزب الاتحاد والترقي، وانضم الى حزب الاحرار الذي اسسه الامير صباح الدين، احد المستائين من الانقلاب لكونه من اسرة الخليفة العثماني.

وعندما قامت العناصر المناوئة للاتحاديين بحركتها التي سميت بالحركة الرجعية سنة ١٩٠٩ بدأ الاتحاديون بتصفية خصومهم وملاحقتهم فاختفى جياووك في دار زوج عمته (يوسف باشا العلوي) وكان عضوا في مجلس المبعوثان، واستمر اختفاءه ستة اشهر بعد ان علم ان السلطة قررت تقديمه للمحاكمة، وعندما اعلن العفو العام عن السياسيين، غادر الاستانة بسرعة، لعدم ثقته بالاتحاديين فعاد الى وطنه واستقر ثانية في بغداد، واكمل دراسة الحقوق في مدرستها، وقد ذكر بعض مترجميه انه اصدر جريدة سياسية باسم (الحقوق) سنة ١٩١٢ ولكن لم اجد عنها خبرا في كتب الصحافة العراقية.

عاد الى الوظيفة ثانية وهو يحمل شهادة عالية، فعين مديراً لناحية (تدمر) في سورية (١٩١٢) ثم مالبث ان عين معاونا لمدير دار المعلمين في البصرة سن ١٩١٣ وعندما اندلعت الحرب العالمية الاولى، انخرط في حركة المجاهدين لمحاربة الانكليز غير ان السرعة التي احتلت بها بريطانيا منطقة البصرة بسبب عدم وجود مقاومة عثمانية حقيقية، اوقعت معروف جياووك اسيرا بيد الانكليز، فنفي مع مجموعة من الاسرى من العسكريين والمدنيين الى (بورما) في انحاء الهند الصينية، وبقي في الاسر زهاء الخمسة اعوام، اصيب خلالها بمرض (الحمى الدماغية) وظل طريح الفراش زهاء العامين.

وفي عام ١٩١٩، اطلق سراحه واعيد الى وطنه محطما، هزيلا لا يقوى على المشي، حدثني المرحوم محمد سعيد الجاف بطريقته المحببة، في معسكر الهنيدي – الرشيد حاليا- جرى تسليمه الى اهله الذين لم يتبينوا شخصيته لما طرأ عليه من ضعف وهزال وخور وكادوا يعودون من حيث اتوا لولا انه شاهدهم واخذ يصيح عليهم باللغة الكردية: (يابه .. دايه.. منتان نه ناسي منم ماروفم) فاخذته امه وهي تصرخ: واى رو.. داي رو..

وفي بغداد، استعاد معروف جياووك صحته، ومعها استعاد نشاطه الفكري، فعمل في المحاماة ثم دخل ساحة القضاء حاكما في كركوك سنة ١٩٢٣ واربيل سنة ١٩٢٤ والديوانية ١٩٢٥ والحي سنة ١٩٢٦ والمسيب سنة ١٩٢٧ ومنذ ان قامت الدولة العراقية، اخذ جياووك يدعم مواقفها بمقالات سياسية كان لها الشأن الكبير والاقبال الواسع، وعندما طرحت قضية الموصل تجلت وطنيته بابهى صورها، فكان قلمه شديداً على المزاعم التركية فدحضها واثبت زيفها، وقد جمعت بعض تلك المقالات في كتابه الموسوم (القضية الكردية) انتخب نائباً عن اربيل سنة ١٩٢٨ ولعل اشهر مواقفه في هذا المجلس معركته الكلامية مع رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون ومن مواقفه الطريفة في مجلس النواب هجومه على لابسي (السدارة) المصنوعة في ايطاليا، ودعوته الى لبس السدارة) العراقية المصنوعة من (الجبن) وظل يرتديها الى النهاية.

اعيد تعينه حاكما في كربلاء سنة ١٩٣١ وكركوك سنة ١٩٣٣ ومفتشا عدليا سنة ١٩٣٦ ونائب رئيس محكمة بداءة الحلة سنة ١٩٣٦ ثم مفتشا عدليا ومدعيا عاما سنة ١٩٣٨ ومدونا قانونيا سنة ١٩٤١ وعضو محكمة التمييز سنة ١٩٤٢ وفي سنة ١٩٤٤ صدرت الارادة بتعيينه متصرفا للسليمانية حتى احيل الى التقاعد في اذار ١٩٤٦ غير انه اعيد الى الخدمة مديرا عام لانحصار التبغ في آب ١٩٤٦ الى ان اعتزل الخدمة في كانون الثاني ١٩٤٧ وقد توفي ببغداد يوم ٢١ / كانون الثاني ١٩٥٨ ونقل جثمانه الى اربيل – حسب وصيته – ودفن في مقبرة (الشيخ جولي) وترك من الاولاد: بوتان، سامان، سوزان بيمان ، هوشيار.

وقد شق نعيه على الكثيرين من عارفي فضله وقدره، فاقيم له احتفال تأبيني مهيب في بغداد، القيت فيه كلمات الاساتذة: محمد الخال، محمد جميل، بندي الروربياني، عبد المجيد لطفي وغيرهم) ورثاه عدد من الشعراء الكرد كالاستاذ محمد علي مدهوش، والشيخ سلام وارخ وفاته شعرا الاستاذ نجم الدين ماموستا في جريدة (زين) بقوله: كهبي بيرسي داد

ي مه زلوومين

محكمه ي ته ميين زوير

بووه عنه مكين

وترك لنا من المؤلفات المطبوعة:

١- القضية الكردية: طبع ببغداد سنة ١٩٢٥ واعيد طبعه سنة ١٩٣٩ .

٢- نيابتي ١٩٢٨ – ١٩٣٠ طبع ببغداد سنة ١٩٣٧.

٣- هه زاربى زوبه دامزراو وكو كرده وى، طبع ببغداد سنة ١٩٣٨ .

٤- الحقائق الثابته في كراسة عن نوري السعيد، طبع ببغداد سنة ١٩٤٨.

٥- مأساة برزان (بغداد ١٩٥٤).

لقد طبعت بعض كتب الاستاذ معروف جياووك ضمن مطبوعات (نادي الارتقاء الكردي) الذي حصل جياووك على اجازة تأسيسه عام ١٩٣٠ في بغداد وقد حضر حفل افتتاحه جمهرة كبيرة من وجوه المجتمع في بغداد وكان شعاره يحمل صورة القائد صلاح الدين الايوبي، وقد اصدر هذا النادي عددا من الكتب الخاصة بالثقافة الكردية ككتاب (ذكرى بيره ميرد) للاستاذ علاء الدين سجادي، وبعض كتب جياووك.

المصادر:

ج التآخي ليوم ٢٣ حزيران ١٩٧١، دليل مشاهير الالوية العراقية، معجم المؤلفين العراقيين، لقاء مع المرحوم محمد سعيد الجاف.

ماهي قصة العثور على اول نص مسرحي يطبع في العراق ؟

احمد فياض المفرجي

LATHIF
ET
KHOCHABA
SCÈNE MORALE EN UN SEUL ACTE
EXTRAITE DU FRANÇAIS
PAR
NAOUM SAHHAR
PROFESSEUR
A L'ECOLE DES PERES DOMINICAINS
MOSSOUL
IMPRIMERIE DES PÈRES DOMINICAINS
1893

رواية لطيف وخوشابا
استخرجها من الفرنسيّة
نعوم فتح الله سحار
احد المعلّمين في مدرسة الآباء الدومنكيّين
طُبعت في الموصل
في دير الآباء الدومنكيّين
سنة ١٨٩٣

منذ عام ١٩٦١، وفي السابع والعشرين من شهر آذار تقام في جميع انحاء العالم، احتفالات بيوم المسرح العالمي.. وقد دأب المسرحيون في العراق اعتباراً من عام ١٩٦٦ على مشاركة مسرحيي العالم احتفالا بهم بهذا اليوم الذي من اهدافه التعرف على التراث المسرحي ونشره بمختلف الاشكال.. ان هذه المناسبة تثير فينا – نحن الوثائقيون – حنيناً الى المصادر الاول لحركة المسرح في بلادنا، لمراجعتها وكشفها امام الجيل الجديد الذي يفتقر – مع الاسف – الى الوقت والصبر الكافيين للرجوع المباشر الى تلك الاثار الرائدة من خلال عمليات البحث والمسح التي هي سبيلنا لاستكشاف الماضي ودراسة عناصره الايجابية التي تحمل شحنات تضيء الحاضر..

ولعل من اهم صفحات تراثنا المسرحي، التي تستاهل المراجعة في مناسبة "يوم المسرح العالمي" هي مسرحية "لطيف وخو شابا" التي "استخرجها من الفرنسية نعوم فتح الله سحار احد المعلمين في مدرسة الآباء الدومنيكيين، والتي "طبعت في الموصل في دير الاباء الدومنيكيين سنة ١٨٩٣".

وكان اول من اشار الى هذه المسرحية الدكتور علي الزبيدي في مقال نشره في سنة ١٩٦٥، بمجلة "الاقلام" الصادرة عن وزارة الثقافة والارشاد – انذاك – وشرح الزبيدي قصته مع "لطيف وخوشابا" ايضا في كتابه "المسرحية العربية في العراق" الصادر في سنة ١٩٦٧ عن معهد البحوث والدراسات العربية في جامعة الدول العربية، حيث ذكر: "فقد نبهني الى وجودها الاستاذ كوركيس عواد، وهو الذي حدد لي سنة تاليفها وطبعها وذكر لي بعض التفاصيل عن تمثيلها" و"لم استطع العثور على نسخة منها رغم الجهود التي بذلتها والمتاعب التي لقيتها في هذا السبيل" و"قد بحثت عن هذه المسرحية في اماكن مختلفة، واستعنت ببعض مدرسي المدرسة الكلدانية التي انتقلت الى بغداد فباءت محاولاتي للعثور على نسخة منها بالفشل..".

وبعد نشر مقالة الدكتور الزبيدي عقب عليه الدكتور صالح جواد الطعمة بكلمة عنونها "المسرحية في العراق في العهد العثماني" نشرها في مجلة "المكتبة" التي تصدرها مكتبة المثنى ببغداد.. وجاء في هذا التعقيب:

(.. وقد احسن الدكتور علي الزبيدي صنعا عندما قام اخيراً بمحاولة تصحيح هذا الانطباع السائد، وذلك باشارته الى مسرحية نشرت لمؤلف عراقي عام ١٨٩٣م).

غير انه ما يدعو للاسف ان الدكتور الزبيدي لم يستطع الوقوف على نص مسرحية نعوم فتح الله سحار المعروفة باسم "لطيف وخوشابا" بسبب عدم تيسرها، وان كان قد حاول تلخيصها على اساس اتصالاته الشخصية كما يفهم القاريء. ولم يشر الى مراجع مطبوعة تناولتها.. فهناك مثلا معجم سركيس "المطبوعات العربية والمعربة" المطبوع في سنة ١٩٢٨، وقد اشار الى ان الاستاذ قد احترف التعليم في مدرسة الرسالة الدومنكية في الموصل و"صرف عنايته في تنشيط اعماله للتمثيل على مسرح هذه المدرسة" وذكر عدداً من المؤلفات بينها رواية "لطيف وخوشابا" معتمدا كما يبدو على تاريخ الموصل للقس سليمان صائغ..

كما ان هناك مطبوعات اخرى او فهارس – كفهرس مكتبة نيويورك العامة – تشير الى ان المسرحية مترجمة عن الفرنسية او مقتبسة عن مسرحية "مدام دي بنوار".

وقد اثارت ملاحظات الدكتور الطعمة حماس عدد من الباحثين، حيث قاموا بعمليات مسح واسعة في مكتبات بغداد والموصل وفي الديارات والكنائيس بغية العثور على نسخة من "لطيف وخوشابا".

ويبدو ان تواجد الاستاذ عمر الطالب المدرس في جامعة الموصل، في المدينة التي تم فيها طبع المسرحية، قد مكنه من تحقيق الامنية التي راودتنا نحن المعنيين بتدوين تاريخ حركة المسرح في العراق.

وكان الاستاذ عمر الطالب هو مصدرنا الذي حصلنا منه – الزبيدي وانا – على نسخ من المسرحية التي يجد – القراء – تفصيلات وافية عنها في الكتاب الذي الفه عن "المسرحية العربية في العراق" وحصل به على شهادة الدكتوراه..!

اما المكان الذي كانت مسرحية "لطيف وخوشابا" مودعة فيه فهو دير الآبار الدومنكيين الكائن بمنطقة الساعة في محافظة نينوى، وهو دير قديم لعب دوراً مؤثراً في نشر المعرفة، وما زال هذا الدير يمتلك مكتبة كبيرة، ولايعرف احد ما فيها من كنوز غطاها الغبار، وقد زرت دير الآبار الدومنكيين مرات عدة وراجعت فهارسه..!

ورغم العثور على "لطيف وخوشابا" فان بحثنا عن المصادر التي تحدثت عن هذه المسرحية الرائدة لم ينقطع.. ونشير هنا الى واحد من هذه المصادر الجديدة، وهو كتاب "دراسات في المسرح والسينما عند العرب" تأليف يعقوب. م. لنداو، الذي اكتفى بادراج مسرحية "لطيف وخوشابا" في فهارس كتابة وذكر انها كتبت بـ "لغة عربية وبلهجة عامية عراقية"، واشار ايضا الى انها "طبعت في الموصل – دير الآباء الدومنكيين – سنة ١٨٩٣. وتقع في ٨٣ صفحة".

ووضع نعوم فتح الله سحار مقدمة لمسرحية "لطيف وخوشابا" التي تعد اول مطبوع مسرحي يطبع في العراق، اضافة الى كونها اول مسرحية مقتبشة ومكتوبة باللهجة العامية العراقية، وهذا هو النص الكامل للمقدمة (ان مضمون هذه الرواية الادبية هو اولاً: حث الوالدين كي يحسنوا تربية اولادهم ولا يتركوهم ان يفعلوا بحسب هواهم وارادتهم مهما كانوا اعزاء عليهم ومحبوبين منهم، بل يجدر بهم ان يردعوهم عن الشر ويقاصصوهم عندما يصدر منهم نقيصة. وثانياً يعلمنا مضمون هذه الرواية الصفح عما الحقه بنا الغير من الضير والاساءة وخصوصاً ان نشفق عليهم عند مشاهدتنا اياهم حاصلين في حالة الحزن والشدة.

وكانت هذه الرواية معنونة باصلها الفرنسي بعنوان Fanfan et Colas فدعوتها برواية لطيف وخوشابا، مثلما بدلت اسماء بقيت المشخصين.

واجتهدت باستخراجها الى اللغة العربية المبسطة رجاء ان يفهمها الجميع، وجعلت محاورة بتو وخوشابا ابنه، بالعربية المقسودة التي يستعملها القرويون القاطنون في كردستان عند تكلمهم بهذه اللغة..).

××

ان مناسبة الاحتفال بيوم المسرح العالمي تؤكد معنا ضرورة الالتفات الى "لطيف وخوشابا" وبعث نصها الكامل، وذلك بطبعها مع الاعمال المسرحية الاخرى التي الفها نعوم فتح الله سنحار.. بعد دراستها وتحليلها ووضعها في سياقها الفني ومسارها التاريخي ضمن حركة المسرح في القطر.

م. الاذاعة والتلفزيون ١٩٧٧

قد دأب المسرحيون في العراق اعتباراً من عام 1966 على مشاركة مسرحيي العالم احتفالا بهم بهذا اليوم الذي من اهدافه التعرف على التراث المسرحي ونشره بمختلف الاشكال.. ان هذه المناسبة تثير فينا – نحن الوثائقيون – حنيناً الى المصادر الاول لحركة المسرح في بلادنا، لمراجعتها وكشفها امام الجيل الجديد الذي يفتقر – مع الاسف – الى الوقت والصبر الكافيين للرجوع المباشر الى تلك الاثار الرائدة من خلال عمليات البحث والمسح التي هي سبيلنا لاستكشاف الماضي ودراسة عناصره الايجابية التي تحمل شحنات تضيء الحاضر..

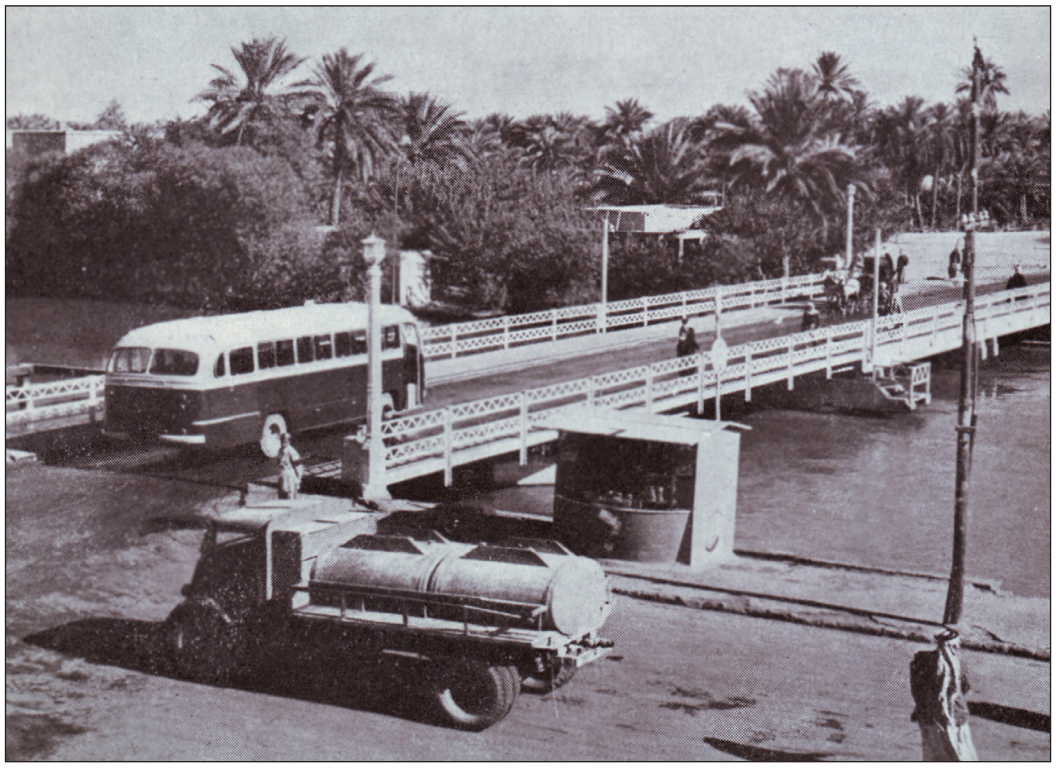

محمد حسين علي السباك

مكتبات الحلة... تاريخ وذكريات

محمد هادي

جذور المكتبات:

لا تحدثنا مصادر تاريخ الحلة عن وجود مكتبة بهذه المدينة في أواخر العهد العثماني والسنوات الاولى من الاحتلال الانكليزي للعراق، لان عدد المتعلمين وطلاب العلم محدود جداً، وبالتالي فليس هناك جدوى اقتصادية من فتح مكتبة حينذاك، لذا نجد بعض اصحاب الدكاكين التجارية يتعاطون بيع وشراء الكتب المخطوطة واللوازم المكتبية كالحبر والمحبرة والقرطاس والقلم وما شاكل ذلك، اما الصحف والمجلات والكتب المطبوعة فلا توجد الا عند الذين يجلبونها من بغداد او من خارج العراق بسفراتهم. بذلك حدثنا الدكتور محمد مهدي البصير باحدى مقالات كتابه (سوائح) إذ لا يذكر من دواوين الحلة ببداية القرن العشرين التي يقرأ روادها الصحف والمجلات والكتب الحديثة إلا ديوان حبيب بك آل عند الجليل وديوان آل شبيب البغدادي، واستمر حال المدينة هكذا على الرغم من محاولات المرحومين محمد جواد حيدر وعباس حلمي (صاحبي مكتبة المعارف والمكتبة العصرية ببغداد) على تشجيع وحث اقاربهم ومعارفهم في الحلة بخوض ميدان تجارة المطبوعات والقرطاسية، واول من تعاون مع حلمي في الحلة السيدان مجيد نصر الله وعباس السعيد، إذ اخذ يجهزهما بنسخ من القرآن الكريم والكتب والمجلات والصحف والقرطاسية ومع كل التسهيلات التجارية ليتعاملا ببيعها في دكاكينهم مع بقية المواد العطارية الاخرى، وهكذا كانت البداية.

المكتبة الاولى:

اول مكتبة في الحلة هي مكتبة الفرات لصاحبها المرحوم عباس السعيد حيث اسسها عام ١٩٢٥، كما جاء بدليل بلاد الشرق لعام ١٩٤٥ في الصفحة (٥٠١)، وبذلك اصبحت هذه المكتبة وكالة لتوزيع الصحف والمجلات العربية والاجنبية في الحلة إضافة لبيع الكتب والقرطاسية وتجليد الكتب، والمرحوم السعيد من مواليد الحلة عام ١٩٠٠ ولا يتجاوز تحصيله الدراسي حاجز القراءة والكتابة.

واستمرت مكتبة الفرات لليوم بمكانها في الجهة اليمنى من شارع المكتبات، إذ ورثها المرحوم مهدي عباس السعيد عن والده عام ١٩٣٩ ليورثها لأبنائه عام ١٩٩٨ وهي اليوم بإدارة السيد صلاح السعيد. واخوته إلا ان هذه المكتبة العريقة ومنذ اواخر الثمانينات اصبحت مكتبة للقرطاسية فقط!، بعد ان كان صبي المكتبة (جواد الاخرس) لوحده يبيع حوالي الألف صحيفة يومياً وأعداداً كبيرة من المجلات الدورية المحلية منها والعربية والأجنبية خاصة في فترة الخمسينيات والستينيات.

المكتبة العصرية ومطبعتها:

بتشجيع من المرحوم محمود حلمي صاحب المكتبة العصرية ببغداد، اسس المرحوم علي الحاج حسين السباك المكتبة العصرية بالحلة عام ١٩٢٧ كثاني مكتبة بهذه المدينة وبشارع المكتبات ايضا من الجهة اليسرى، وقد كان اختيار هذا الاسم تيمناً باسم مكتبة حلمي ببغداد.

والسباك الذي اصبح لقبه بعد فتح المكتبة بـ (الكتبي) من مواليد الحلة عام ١٩٠٩، وهو صاحب مسبك ورثه عن والده وتعلم بجهوده الخاصة القراة والكتابة. وفي عام ١٩٣٢ اصبحت لهذه المكتبة مطبعتها الخاصة، ولكونها المطبعة الوحيدة – حينذاك – في الحلة، فان نجاح المطبعة اصبح على حساب المكتبة، وكان يدير المطبعة عام ١٩٣٨ الحاج ناصر السعيد، ومن ثم انيطت الادارة للمرحوم صاحب الحاج حسين السباك، وانتقلت ملكيتها عام ١٩٨٢ لولده فارس، واستمرت في مكانها بشارع المكتبات حتى عام ١٩٨٨ حيث هدمت بنايات الجانب الايسر من الشارع، فانتقلت الى بناية مقابل حديقة النساء، وهي اليوم كعهدها منذ سنوات مطبعة فقط.

مكتبة الرشاد:

في اواخر الثلاثاينيات اسس الشيخ نجم العبود مكتبة الرشاد في منتصف شارع المكتبات من الجهة اليمنى، والشيخ نجم رجل دين ذو افكار تحررية معاصرة من مواليد الحلة ١٩٠٧ ويرتدي الملابس العربية (العقال والشماغ)، اصدر مجلة الرشاد بالحلة عام ١٩٣٩ ومن ثم جريدة (نفحة الرشاد).

وباع الشيخ نجم المكتبة عام ١٩٤٧ الى المرحوم عبد الجليل الناصر الذي يتميز باناقته وهو من مواليد الحلة عام ١٩٢٠ وخريج الدراسة المتوسطة. ولم يقتصر نشاط المكتبة بادارة الناصر على بيع المكتب والمجلات والصحف والقرطاسية بل وتميزت بتصليح اقلام الحبر ومن كافة الماركات وتوفير المواد الاحتياطية لها وهذه العملية كان يمارسها بيده. استمرت هذه المكتبة علامة مميزة من علامات شارع المكتبات لغاية عام ١٩٧٦ حيث تعرض الناصر لحادث دهس ولانشغال اولاده بالدراسة اغلقت هذه المكتبة العريقة.

مكتبتا الفيحا والمعارف:

ما بين عام ١٩٤٠ – ١٩٤٢ كانت هناك مكتبة بمدخل شارع المكتبات من الجهة اليسرى تدعى (مكتبة الفيحاء) لصاحبيها محمد طه علوش وعبد الحسين هادي علوش ولاختلافهما اغلقت المكتبة. وبغلق مكتبة الفيحاء، اسس السيد عبد الحسين هادي علوش مكتبة المعارف، وهو من مواليد الحلة عام ١٩١٧ ولا يتعدى تحصيله الدراسي الثالث الابتدائي (مسائي) وكان قبل اشتراكه بفتح مكتبة الفيحاء يمتهن العطارة مع والده. واذا كانت مكتبة المعارف مقابل مكتبة الفرات فانها انتقلت في اواخر الثمانينيات الى الجهة اليمنى من شارع المكتبات، ومن ثم انتقلت الى ساحة الاحتفالات في التسعينيات لتعود اخيرا لشارع المكتبات عام ٢٠٠١ وقد تعاقب على ادارتها بعد مؤسسها المرحوم عبد الحسين علوش ولده المرحوم فلاح علوش وحفيده علي علوش. ومنذ اواخر الثمانينيات تحولت مكتبة المعارف تدريجيا لتجارة القرطاسية!.

مكتبة الرافدين:

اسس السيد هادي السيد عباس الموسوي مكتبة الرافدين عام ١٩٥٣ في نهاية الجهة اليمنى من شارع المكتبات (عمارة الاوقاف)، وهو من مواليد الحلة عام ١٩١٧ وخريج الدراسة الابتدائية وقد سبق ان عمل سنوات طويلة عاملا اجيرا لدى خاله المرحوم عباس السعيد صاحب مكتبة الفرات. واستمرت مكتبة الرافدين بمكانها لغاية ١٩٧٠ حيث انتقلت الى باب الحسين حيث هي اليوم وقد ترك سيد هادي عمله الذي احبه كأقدم كتبي في الحلة بسبب حالته الصحية. وهناك عدة مكتبات في الحلة لم تستمر طويلا منها:

١- مكتبة الارشاد: اسست عام ١٩٤٢ وبادارة رؤوف كمال الدين بشارع الشهيد علي عجام، واحرقت بوثبة ١٩٤٨.

٢- مكتبة الشباب القومي: اسست عام ١٩٤٧ وبادارة ابراهيم نوري ابراهيم في زقاق فرعي من شارع المكتبات (سوق الهرج)، وانتقلت لشارع الشهيد علي عجام، واغلقت عام ١٩٤٨.

٣- مكتبة الجمهورية: وقد كان اسمها القديم (الفيحاء) اشتراها كريم ابراهيم المطيري من صاحبها باقر زكوم عام ١٩٥٦، وبعد ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ غير اسمها الى مكتبة الجمهورية واستمرت بمكانها (عمارات الاوقاف) شارع المكتبات لغاية عام ١٩٥٩ لتنفتح ثانية بجوار استديو كمال (مصرف الاقتصاد حاليا) لتغلق عام ١٩٦١.

مكتبات الحلة اليوم:

توجد اليوم عشرات المكتبات في الحلة، حيث ثمة مكتبة او اكثر بكل شارع – تقريباً – وبكل حي، ومعظم هذه المكتبات متشابهة (توائم) من حيث نوع النشاط وسعته، والبعض القليل يمتاز بشيء معين بسيط كبيع الكتب القديمة او ايجارها او وجود جهاز استنساخ، ولكن هناك مكتبة مميزة هي:

مكتبة الدار الوطنية:

تأسست كمعرض دائم لبيع منشورات الدار الوطنية في بداية عام ١٩٨٠ في شارع موازٍ لشارع المكتبات، ولكن بيعت هذه المكتبة عام ١٩٨٧ للسيد محمد حسين علي السباك الذي نقلها الى ساحة المحافظة القديمة عام ١٩٨٨. وهي اليوم أوسع مكتبات الحلة نشاطا، إذ هي المصدر الرئيس لتوزيع الصحف والمجلات بالمدينة ونشر الاعلان لسنوات طويلة، اضافة لبيعها الكتب الحديثة والقديمة والقرطاسية بالمفرد وبالجملة، لذا تذكرنا بمكتبات الحلة ايام زمان كالفرات والمعارف والرافدين والرشاد.

ومن المكتبات الحلية ايضا مكتبة الامام الصادق لصاحبها المهندس هادي البيرماني وهي اليوم من اكبر المكتبات وكذلك هي دار للنشر والطباعة اصدرت عشرات الكتب سواء داخل العراق وخارجه بالاضافة الى التعاون الذي يبديه البيرماني مع الطلبة والباحثين حيث تمثل المكتبة والمطبعة الملاذ المطرز بحسن التعامل والتساهل الى ابعد حد مما اكسب البيرماني ثقة الجميع واحترامهم.

مكتبة الغسق لصاحبها السيد عبد الأمير البيرماني والغسق تقع مقابل مكتبة الصادق وقد تخصصت اليوم باقامة معرض الكتاب حيث شهدت ساحة الاحتفالات اقامة اكثر من معرض ضم الاف العناوين وشهد اقبالا كبيراً.

مكتبة الرياحين:

صاحبها نجاح شنين البيرماني وهو يقوم بطبع الكتب ايضا ويقيم المعارض ويتعامل مع الدوائر والمؤسسات وتربط نجاح علاقات ودية مع اغلب الاساتذة والطلبة والباحثين وهنالك كذلك مكتبة ولاء الصواف الاديب والشاعر الذي يقوم ايضا بطبع النتاجات الادبية في الدار او في دور النشر في دمشق ولا ننسى مكتبة الانوار ومكتبة الطالب ومكتبة القراء ومكتبة الحلة ومكتبة التعاون ومكتبة الايمان ومكتبة العلامة الحلي ومن الادباء الذين افتتحوا مكتبات لهم ايام الحصار والظروف الصعبة التي مر بها العراق مكتبة الشاعر احمد الحلي في عمارة العزاوي وقد اغلقت بسبب سفر صاحبها خارج العراق ومكتبة الشاعر رعد كريم عزيز في شارع ٤٠ والذي تركها هو الاخر بسبب سفره ايضا حيث كان زميله الحلي من المعارضين مكتبة الشاعر عبد الامير خليل مراد وكانت في شارع الامام علي بدأها بكتبه ثم توسع الأمر لكنه تركها بعد التغيير مكتبة القاص حازم الصافي وكانت مقابل ساحة الاحتفالات وتركها ايضا في بداية الالفية الجديدة وبالطبع هنالك مكتبات كبيرة مثل مكتبة جامعة الحلة الدينية التي سعى السيد فرقد الحسيني القزويني لرفدها بعشرات الالاف من العناوين في موضوعات مختلفة منها الدينية والعلمية والادبية والمكتبة المركزية التي تعد الاقدم ومكانها مجاور المديرية العامة لتربية بابل والتي تمتلك هي الاخرى مكتبة عامرة فيها الاف العناوين كذلك توجد مكتبة مركزية كبرى في جامعة بابل ومكتبات اخرى في معظم كليات جامعة بابل ومنها مكتبة كلية القانون وكلية التربية وكلية الفنون وكلية الطب والمعاهد وغيرها.

جريدة المدى 1/آب/ 2004م

جلال الحنفي

هكذا كنت أرى باب المعظم وماجاوره

ما مررت بمنطقة باب المعظم الا تذكرت بغداد عبر سنين طويلة يوم كان الداخل الى بغداد يمر بجامع الازبك عن جهة اليمين الذي كان يقع عند مدخل الشارع فانه سيرى على بابه شعرا قاله شاعر بغداد في الحقب الماضية صالح التميمي اذ قال من بعض ما قال:

اذا جئت للزوراء قف عند بابها — تجد جامعا من غفلة الجهل مانعا

وكانت الى جوار هذا الجامع تكية للازبكية القادمين من اوزبكستان لهم فيها عرف ومأوى دائم وقد ازالوا هذه التكية بالمرة وشردوا ساكنيها وكنت اماما وخطيبا في جامع الازبك لمدة تنوف على العشر سنين وكانت اطيب ايام حياتي في هذا الجامع وقد اسست فيه جمعية الخدمات الدينية والاجتماعية وواصلت فيه اصدار مجلتي المسماة بمجلة الفتح..

ان هذا الجامع العظيم هدم تعسفا ليبيت جامعا صغيرا ليس فيه من المشتملات ما يجعله يلفت انظار الداخلين فيه او المارة من امامه ولم تنتفع الاوقاف من هدمه.. كما كان هناك باب اثري يرجع الى اواخر عهد العباسيين مررت منه يوم كنت صغيرا اذ اخذتنا ادارة مدرستي مع مدارس ابتدائية اخرى في اوائل العشرينات متجهين الى البلاط الملكي ليستقبلنا الملك فيصل الاول ويستعرضنا ايامئذ اذ لم تكن في بغداد اية مدرسة الا ما كان في بدء انشائه منها ولا اتذكر اكنت في الصف الاول ام كنت في الصف الثاني ولا شيء من الصفوف بعد ذلك غير صفنا الاول والثاني..

وقابلنا الملك وكان واقفا في مدخل البلاط ونحن نمر من امامه الى داخله وعدنا بعد المقابلة من ذات الطريق..

ان هذه البوابة الفخمة التي تدل على عظمة بانيها بيعت بمبلغ بسيط تافه يقل عن عشرة دنانير على ما فهمناه مما اورده الباحث عبدالحميد عبادة في كتاب له..

ولم يكن من الضروري ابدا هدم بوابة بغداد لامروريا ولا هندسيا اذ لم يكن القوم يعلمون ان الاثار القديمة هي مورد اقتصادي لاي بلد في هذا العصر..

وكانت في مدخل بغداد حوانيت ودكاكين لعدد من الباعة وقد كانت على ما شاهدت عدة دكاكين تقع في المنطقة وقد لبثت امدا ثم هدمت فصارت بلقعا.. وقد بنيت في باب المعظم مكتبة عالية فخمة جدا كنا نتردد عليها للمطالعة ولكنها بعد حين هدمت خطأ وتعسفا بدعوى توسيع الطريق ولم يؤد هدمها الى توسيع يريدونه..

ولم يكن هناك جسر بل كانت هناك مشرعة يقال لها شريعة المجيدية وبناء الجسر هنا مفيد وضروري على ان لبناء هذا الجسر قصة شبه مروعة هي انهم عثروا هناك على اثار قديمة جدا الا ان الدولة يومذاك طمرت هذه الاثار بلا رحمة استرضاءا لرغبة الشركة اليابانية انذاك..

وكانت القلعة العسكرية تحف بها جدران عالية واسوار متينة مرتفعة وقد عدموها خلافا للقانون الذي يحمي الاثار القديمة ووضعوا مكانها سياجا حديديا واطئا لايزال موجودا وراحوا يمنعون السابلة من المرور قربها..

وكانت امام الرائي عند دخول بغداد مبان بعضها قديم كمثل التكية الطالبانية التي عاش فيها وكان رئيسها الشيخ عبدالله الطالباني وابناؤه رحمه الله احد ضباط الجيش العراقي وحسن الطالباني الذي استوزر في بعض الفترات وعلى الطالباني الذي تولى بعض المناصب الادارية..

ويرى الداخل بغداد عددا من المقاهي على الجانب الايمن من الشارع منها لاحمد كلك واسطة لطيف واخرين ثم يرى مدرسة ابتدائية هي مدرسة المأمونية وكنت من طلاب قسمها المسائي ويرى الرائي في الواجهة جامع الميدان الذي يسمى جامع الاحمدية وامامه مقهى البلدية وكانت مقهى كبيرة يجتمع وراءها باعة الحميس وباعة اخرون وكانت الى جوار جامع الاحمدية سوق خاصة بالشركجية زالت فيما بعد..

وكان للقلعة باب تقع في جهة الميدان تقع عندها قهوة السيد بكر وكنا اعتدنا الجلوس على مقاعدها .. هذه المعالم ومعالم اخرى كعدد من المساجد والمطابع والحوانيت لاوجود لها اليوم..

وعلى الجانب الايسر من الشارع المسمى اليوم شارع الرشيد وكان يسمى عند اول افتتاحه عام ١٩١٨ بخليل باشا جاده سي اي شارع خليل باشا القائد العثماني..

وكانت على الجهة اليسرى قهوة الوقف والى جانب منها خان عمر وهو فندق كان الذين يراجعونه ليلا ينامون على الارض بلا فراش لقاء عشرة فلوس رأيت خلقا منهم هناك على هذه الحالة..والى جوار التكية الطالبانية وبالتحديد بينها وبين جامع المرادية توجد فنادق اهلية..ان هذه الجهة كانت ذات كثافة في السكان كثيفة جدا وفي الميدان كانت تقع سينما العراق كانت اول الامر تعرض فيها الافلام صامتة وتكتب بعض تفاصيل الامر على الشاشة في ترجمة مستعجلة..

ولم تكن في بغداد اول امرها مطاعم وكان بعض النساء يجلسن في منتصف السوق وبين ايديهن قدورهن التي يبعن فيها الرز والامراق اذ يجلس الاكلة على الارض ليتناولوا طعامهم.. وكذلك كان يقع في نهاية باب المعظم وفي مقابلة جامع الازبك في مدخل محلة الطوب مسجد يسمى مسد عمر امامه السيد مصطفى ال قمر..

وفي جهة باب المعظم من نهر دجلة حتى باب الميدان امتدادا الى الشمال كان هناك خندق بغداد القديم وقد ادركته وهو اخدود عريض وعميق وفيه شيء من الماء مع قاذورات كانت تلقى فيه ثم طمروه وبنوا بهو امانة العاصمة وكانت تقام فيه حفلات الاستقبال الرسمية ومن ذلك حفلة استقبال ملك الافغان محمد ظاهر شاه وقد حضرناها ولايزال هذا الملك الافغاني حيا حتى اليوم وقد اقيم عليه انقلاب اقامه احد ذوي قرابته المدعو داود،وقد استقبلنا الملك الافغاني في مقر اقامته بقصر الزهور عند زيارته بغداد اذ كان ضيفا على الملك غازي وكنا اربعة من رؤساء الجمعيات الاسلامية في بغداد وهم يومذاك الشيخ امجد الزهاوي رئيس جمعية الاخوة الاسلامية والشيخ قاسم القيسي رئيس جمعية الهداية وكمال الدين الطائي معتمد جمعية الاداب الاسلامية اما انا فكنت رئيسا لجمعية الخدمات الدينية والاجتماعية في العراق وجرى بيننا وبين الملك حديث حول باكستان التي تم انشاؤها قريبا والبشتونستان الذين هم سكنة افغانستان وهو حديث طويل..

وفي عام ١٩٣٥ عينت وكيلا لخطيب المرادية مقابل وزارة الدفاع ومن مومذاك الغيت التغني على المنابر يوم الجمعة في خطبة الجمعة وقد تعرضت بسبب ذلك لسخط عظيم وغضب شديد من جماعة من كانوا هناك من المصلين اذ كانوا يعتقدون ان التغني في خطبة الجمعة امر من ثوابت الشريعة وفي الجمعة التالية حضر الى بغداد من الموصل عالمها المعروف الشيخ بشير الصقال فنطت به خطبة تلك الجمعة وهو شيخ ذو عمة ولحية ظاهرة تكاد تغطي صدره فلما خطب لم يلجأ الى التغني وانما القى خطبته مرسلة دون غناء وعلمت الناس ان تصرفي في حذف الغناء عند الخطبة كان صحيحا..

وبنوا الى جوار جامع الازبك في باب المعظم قاعة كبيرة واسعة سموها قاعة الملك فيصل الثاني ثم سميت بقاعة الشعب.

وفي الوقت الحاضر اتخذوا من مستشفى المجانين ومن سجن بغداد المركزي اللذين كانا في باب المعظم ما يسمى اليوم بوزارة الصحة..

وقد وصل الماء عند فيضان نهر دجلة قبل الثلاثين الذي يسمى بالكسرة الى باب المعظم وشاهدت ذلك بعيني وانا صغير..

وكان يقع في باب المعظم مستشفى المجانين الذين كانت تسمع اصواتهم عبر اسوار المستشفى كما كانت تقع هناك مستشفى المجيدية التي كانت قبل ذلك قصرا اصدر السلطان العثماني محمود خان امره لوالي بغداد مدحت باشا ببنائه لسكني الشاه الايراني ناصر الدين شاه ومن معه عند مروره ببغداد الى فرنسا للعلاج ومن يومذاك عرف اهل بغداد شرب الشاي، وقد جاء مع الشاه الى بغداد ما يقرب من الف مرافق وكان القصر المذكور يسعهم بخيولهم وقد شاهدت القصر وشاهدت بابه قبل هدمه..

وكانت هناك حوانيت للعلافين الذين يبيعون التبن والشعير للناس وللجيش خاصة اذ تقوم هذه الحوانيت امام القلعة.

والكلام على المواقع البغدادية كلام يطول وله اجنحة وذيول وتلك الايام نداولها بين الناس..

جريدة الاتحاد اذار 1985

عـــــزرا حـــــداد..

احد أهم اعيان ومثقفي الطائفة اليهودية في بغداد

مازن لطيف

A Jewish family of Baghdad

عائلة يهودية في بغداد

الأثـر الأدبي والعلمـي والفني العراقـي اليهودي أخـترق كل جوانـب الحيـاة في العـراق، ويحتاج الى من يعتني بجمعه، وحري بالثقافة العراقية أن تلتفت إليه. وعليه فبودنـا دحض دعاوى المعادين لذكـر هـؤلاء الذين ظلمـوا أكثر من مـرة. ومما لا شـك فيـه أن دور الادبـاء اليهود هـو دور كبير في تاريخ الثقافة العربية، ومن الشخصـيات الكبيرة في مجـال الادب والتحقيـق والترجمـة هوعـزرا حـداد (١٩٠٠-١٩٧٢) باحـث واديـب ومرب نابه من أفضـل الكتاب والمترجمـين العراقيين في فترة الثلاثينـات والاربعينـات مـن القـرن العشـرين، واحـد اهم اعيان ومثقفي الطائفـة اليهودية، وهو ممن اغنوا المكتبة العراقيـة والعربية بانجازاتهم العلميـة الرصـينة في ميـدان البحـث التاريخـي. اتقن عدة لغات منها العربية والعبرية والانكليزية والفرنسـية والتركية والفارسية، تم تعيينه مديراً للمدرسـة الوطنيـة عـام ١٩٢٣ ثم معاوناً لمدرسـة شمّاش عـام ١٩٢٨ ثـم اعيـد مديـرا للمدرسـة الوطنية من جديد عام ١٩٣٣

ونظراً لمكانتـه الأدبيـة، فقـد أعتبر عضـواً بارزاً في نـادي القلـم العراقـي الـذي كان يضـم خـيرة الأدبـاء والكتـاب العراقيين، كمـا أعتبر مـن أبرز كتاب صـحيفتي البلاد والحاصـد حيث عمل فيهما لسنوات طويلة.

وقـد وافقـت وزارة المعارف العراقيـة عام ١٩٤٧ على نشـر كتابه(الف باء) للصـف الاول الابتدائي لتعليمهم القراءة العبرية حسـب الاسلوب الجديد للتدريـس، ونشـر في نفـس العـام كتابـه باللغـة العبريـة (قصـص مـن الكتـاب المقدس) وصـدر الكتاب في نفس العالم باللغة العربية ليكون منهجا للطلاب في المدارس اليهودية في العراق.

ومن أبرز أعمال عزرا حداد ترجمته لكتاب الحاخام بنيامين التطيلي (رحلة بنيامين التطيلي (١١٦٥-١١٧٣) إلى اللغـة العربية في عـام١٩٤٥م، وعلى أثر نشـره لهذا الكتاب اختير عضـواً في الجمعية الآسيوية الملكية لكتاب القصة في لندن.

يسـجل للمرحـوم عـزرا الحـداد الفضـل الكبـير بترجمـة رحلـة بينامـن التطيلـي الاندلسـي مـن اللغـة العبرية الى العربية، وقـد اهدى الكتاب الى المحسـن الكبير عزرا مناحيم دانيال، وقدم للكتاب المرحوم عباس العزاوي، حيث ذكر ان عزرا حداد هو أسـتاذ غني عن التعريف والاطراء، فهو كاتب معـروف بـين كتابنا. يجمـع الى ثقافته الواسـعة دراسـة مكينـة في اللغـة العبرية وآدابهـا وتأريخ اليهـود وتقاليدهـم وشـرائعهم، وتتبعـاً خاصـاً بتأريخ الممالك الاسلامية والأمم الغربية، يساعده على ذلك تمكنه من اللغتين الانكليزية والفرنسـية. ويذكـر العـزاوي في مقدمتـه ان عـزرا، احسـن بتقديمـه ثمـرة مجهـوده النفيس للعـين المحترم العظيم السـيد عزرا مناحيم دانيـال. فهو اهل لأن يقـدم اليه مثـل هذا الاثـر التاريخي لما لـه من أياد بيضـ في الـبر والاحسـان، بـل إنعام وافـر على الموؤسسات الخيرية والمعاهد العلمية.

وكتـب عـزرا تعليقـات وحواشـي للرحلـة اغنـت الكتـاب بعلومات قيمة فضـلا عن ملاحـق للكتاب، بحيث تصـلح أن تكـون مقدمة الكتاب وهوامشـه وملاحقه كتاباً مستقلاً.

أهتـم العلامـة عـزرا حـداد بالدراسـات الدينيـة والتاريخية، حيث نشـر الكثير مـن الكتب في هذا المجـال، منها كتاب (فصـول من الكتـاب المقدس)، وكتاب (تاريخ يهود العراق وقصصهم الشعبية)، كما وضع معجما مختصرا عبريا عربيا.

وخـلال فـترة وجوده في بغداد نشـرت لـه العديد مـن المقالات والبحـوث ذات الطابع الاجتماعي في الصـحافة البغدادية. وترجـم العديد من الروايات الأجنبية، منها: الرجل الذي أضـاع نفسه، ورواية الحـرب في أربعة أيام، ورواية الحرب والصـراع من أجل السلام.

نشـر وكتـب الكثـير مـن البحـوث والمقـالات في الصـحف والمجـلات العراقيـة، منهـا: الحاصـد، البـلاد، المصـباح، الاخبار.. وقـام بترجمة الكثير من القصص.

سـافر عام ١٩٣٤ الى مصر بمهمة صحفية لجريدة البلاد، والتقى هناك بالكثير من الشخيات المصرية منها مصـطفى النحاس واخرين من زعماء مصـر في تلـك الفـترة، تـوفي في ١٤ أيـار ١٩٧٢ لكنـه مايـزال حاضـراً في الثقافة العراقيـة من خلال ما كتبـه وقدمـه من تـراث مكتوب وذلك حاضـراً عند الحديث عن التعليم لدى يهود العراق كونه من اهم الشخصـيات في هـذا المجـال وله بـاع طويل فيه، ونتمنى ان يجمع تراثه المكتوب ويصـدر في كتاب من اجل إعـادة الاعتبار واحياء ذكراه من جديد لما قدمـه للثقافـة العراقية مـن الخدمـات الجليلة هو والكثيرين غيره من العلماء والادباء والصحافيين اليهـود العراقيـين، فلنترحـم عليـه ليسـكنه الله فسيح جناته.

عندما خاصم القبانجي التلفزيون

عُرف عبد الحميد الدروبي بأنه صاحب الرفوف العالية ، البرنامج الإذاعي المتميز الذي عمّر طويلاً في إذاعة بغداد ، لكنه لم يُعرف كونه مذيعا في مرحلة عمله الاولى وإذاعيا شغل مسؤولية أقسام برامجية عدة كان من أهمها قسما التنسيق والمكتبة الصوتية – مجتمعين ومنفردين– و في هذين القسمين الحيويين اللذين يشكلان العمود الفقري لكل إذاعة ولد برنامجه الذي أخذ بالأسماع ومجامع قلوب محبيه حيث جعله الدروبي رحمه الله واحةً ندية جمع فيها أزاهير الألحان التراثية العراقية والعربية وقدمها بإضمامة فواحة الأريج للسامعين والمتذوقين بشكل خاص مقرونةً بحسن الأداء ونكهة الإلقاء والمعلومة الفنية الغنية.

سألته في أول عهدي بالإذاعة عن أصل فكرة – الرفوف العالية– فقادني الى المكتبة الإذاعية القديمة وأراني رفوفها العالية فعلاً التي ماكانت لتُطال إلاّ بسلم عال أيضاً وقال إنه لما وَجد فوق تلك الرفوف كماً كبيرا من (الإسطوانات) المركونة والمتروكة التي كانت تُبث قبل تصنيع الشريط الصوتي المعروف بـ(البكرة) فقد تولدت لديه فكرة آستثمارها في برنامج يحمل الآسم نفسه ويُعرّف بها وبأصحابها من المطربين والمطربات مثلما يعرّف بجوّها وبيئتها وألوانها الغنائية.

ومن المفارقات التي حصلت معه أن صديقاً نعى إليه المطربة البغدادية – صديقة الملاّية– وكانت تعاني من المرض والفاقة في سنيّها الأخيرة ، فما كان من الدروبي إلا أن يأسى لهذا الخبر ويسارع الى تقديم حلقة خاصة عنها، وما إن بُثتّ حتى هاتفته – صديقة – نفسها قائلة له بصوت متعب خفيض وبلهجتها البغدادية : (عيني أبو ماجد آني صديقة ... صدقه لعينك آني بعدني طيبه ما متت).

وعلى ذكر الموت و– الموت حق – كان الدروبي يتطيرّ من ذكره ، ولهذا فإن الفنان الاذاعي الكبير المرحوم عبد الله العزاوي غالباً ما كان يتعّمدُ ذكر أخبار (وفيات وهمية) أمامه ، فينهض الدروبي ويغادر مجلسه فوراً !

والحديث عن الاذاعي الدروبي يعني الحديث عن إذاعة متنقلة ، بتاريخها وإذاعيّيها والآلاف المؤلفة من صوتياتها البرامجية والموسيقية والغنائية.

ومما يذكر عن المذيع القدير في هذه الأسطر أنه في بواكير السبعينات ولدى التهيئة لاحياء ذكرى تأسيس إذاعة بغداد عُهد الينا مع بعض الزملاء وضع مفرداته ، ومما أقترحناه دعوة الفنان الكبير محمد القبانجي لحضور الحفل الساهر ، ولكن كيف السبيل الى ذلك والقبانجي كان حينذاك قد أعرض عن الاذاعة ومسؤوليها وجفاهم زعلاً لأمر في حينه .. فعنّ للدروبي ان يسعى في ذلك ونذهبَ الى مكتبه في الشارع التجاري المتفرع من شارع الرشيد بمنطقة مجمّع المصارف فنحاول إقناعه ما آستطعنا الى ذلك ، وننقل اليه رسالة وّد وتحية ، ودعوة بآسم المدير العام للإذاعة والتلفزيون . وفعلا ذهبنا اليه ، وتحدث الدروبي معه حديث القلب للقلب ، مذكراً اياه بأن الاذاعة إذاعته ، والمناسبة مناسبته ولا آحتفال بدون حضوره ...فتململ القبانجي وآنفرجت أساريره قليلاً ، ولكنه لم يتنازل عن عدم الحضور ، وأكتفى بطلبه منا نقل شكره للمدير العام وتهانيه لأسرة الاذاعة ، وتعلل بأنه مريض وأن طبيبه الشخصي لاينفك عن مصاحبته...

فما كان من الدروبي الا أن قال له : يا أبا قاسم .. امامنا أسبوع على موعد الحفل ، وإن شاء الله ستكون في أتم الصحة والعافية ، ثم اننا لن نجبرك على المكوث طويلاً وآلتفت إلى طبيبه الذي كان حاضراً وطلب منه العون في ذلك!

وبعد تردد أعطى القبانجي أملاً بالحضور ولكنْ علينا أن نتواصل معه هاتفياً.. وبعد يومين من المتابعة أعلن موافقته وحضر حفل الاذاعة في موعده ومكانه المقرر في – نادي الصيد–.

وبعد حوالي الساعة من بدء سهرة تلك السهرة ، همس الدروبي في أذني قائلاً إن القبانجي قد أخذه الآستمتاع والآنتشاء فلنستثمر آرتياحه ... وأرجو أنْ تدعوه للمشاركه غناءاً.

وفوراً أعلنتُ للمحتفلين أن آبن بغداد وبلبلها الغرّيد ، فنان العراق الأول المتوّج في مهرجان الموسيقى العربية بالقاهرة ، يشاركهم الفرحة ويهدي الإذاعيين بعضاً من شذاه الفواح ، ونظمه العذب ، ولحنه الشجي...

وكان ذلك ... فصدح وأطرب وغنى ساعة من الزمن كانت بطعم بغداد وليلها ومباهج عشاقها ، مثلما كانت ليلةً من أجمل ليالي الإذاعة وأهل الفن ظل القبانجي طوالها نشوان طرباً يحفّ به المحتفلون .

أما أبو ماجد ، فما كانت هذه الأجواء الساحرة لتسعَ فرحته ، فقد أنجز نجاحين في آن واحد ،

نجاح حفل ميلاد الإذاعة .. ونجاح تألق الحفل بالقبانجي الكبير .

مجلة الف باء

في 1981

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير: عدنان حسين
مدير التحرير: علي حسين
هيئة التحرير: باسم عبد الحميد حمودي . رفعت عبد الرزاق
الاخراج الفني: نصير سليم التصحيح اللغوي: مروان عادل

طبعت بمطابع مؤسسة
للإعلام والثقافة والفنون